المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يمكن تقسيم التاريخ السياسي لعصر الخلافة الأموية في الأندلس (٣١٦ - ٤٢٢هـ/٩٢٩- ١٠٣١م) إلى حقبتين تاريخيتين متباينتين، إذ تشمل الحقبة الأولى خلافتي عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وقد اتسمت هذه الحقبة بعدة سمات جعلتها تتميز عمن سواها كتحقيق وحدة الأندلس وفرض سيطرة الحكومة المركزية، وإضعاف النصارى في شمال البلاد، والسيادة على السواحل الشرقية والغربية للبلاد، فضلاً عن دعم النفوذ الأندلسي في المغرب الأقصى.

وتبدأ الحقبة الثانية بسيطرة المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور في البلاد، لتنتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس وظهور دويلات الطوائف، وتتسم هذه الحقبة بانحسار سيادة الدولة في الداخل، وانتشار الصراعات الداخلية بين عناصر المجتمع، فضلاً عن زعزعة نفوذها في الخارج.

وعلى الرغم من الانجازات الكبيرة التي تحققت في عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر، غير أنها سرعان ما ذهبت أدراج الرياح وراحت تتلاشى بالتدريج نتيجة لما حل بالأندلس من فوضى واضطرابات نتجت عن عدد من الأسباب كالصراعات التي احتدمت في المجتمع الأندلسي فضلاً عن

جملة من العوامل المختلفة الأخرى، التي تمخضت عن سقوط الخلافة الأموية بشكل نهائي سنة ٤٢٢ه/ ١٠٣١م، وقد ترتب على هذا السقوط جملة من النتائج المهمة السياسية والحضارية والاجتماعية، لذلك كان لزاما لمن يدرس هذا الحدث المهم وهذه الحقبة التاريخية أن يتعرف على أسباب ومسببات ذلك السقوط ووقائعه التي تداخلت فيما بينها حتى أوجدت أرضية خصبة ومناخا ملائما لمن أراد دراسة الموضوع بجوانبه المختلفة والوصول إلى نتيجة، فضلاً عن دراسة اسباب الإنهيار الذي سبق هذا السقوط ومظاهره لأجل فصله عما تعلق به، كما أن الآثار التي تركها هذا السقوط على واقع الأحداث في الأندلس كانت جساماً وهدماً لما تم تأسيسه في حقب سابقة مثل تفتيت وحدة الأندلس وتخريب كيان الدولة السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعسكري، كما أن هذه الدراسة على حد علمي الدراسة الوحيدة التي تناولت انهيار وسقوط الخلافة ولذلك كله تأتي أهمية دراسة موضوع: ((انهيار وسقوط الخلافة الأموية في الأندلس ٣٧١- ٤٢٢ه/ ٩٨١- ١٠٣١م))، الذي عكفنا على دراسته في كل جزئياته لنصل إلى صورة واضحة المعالم عنه.

ولمَّا كان تعلقي بالدراسات الأندلسية تراءى لي أن هناك حقبة تاريخية لم تحظ بالقدر الكافي من الدراسة خاصة في مفهوم التاريخ السياسي، وهي الحقبة التي تبدأ بسنة ٣٧١ه/ ٩٨١م تلك السنة التي سيطر فيها المنصور بن أبي عامر على مقاليد الأمور كافة في الأندلس بعد أن قضى على الأغلب الأعم من منافسيه واتخذ سمة الملك، وتنتهي بسقوط الخلافة سنة ٤٢٢ه/ ١٠٣١م.

وقد أسهم عدد من الباحثين في دراسات سابقة كان لها نصيب في دراسة

موضوعات قريبة لعنوان هذه الدراسة أو تناولت حقباً تاريخية عرجت على بعض الأحداث المتعلقة أو القريبة من هذه الدراسة مثل: دراسة إبراهيم عبد المنعم أبو العلا وهي رسالة ماجستير بعنوان: الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية ٣٩٩- ٤٢٢هـ/ ١٠٠٨ – ١٠٣١م الصادرة من كلية الآداب / جامعة الإسكندرية سنة ١٤٣١هـ/ ١٩٩٣م، لكن على الرغم من الجهد القيم المبذول في هذه الرسالة غير أنها لم تتناول سقوط الخلافة بشكل تفصيلي يعطيه حقه من الدراسة على اعتبار أنه حدث هام ويدخل ضمن فترة الدراسة. وكذلك دراسة صلاح أحمد عبد خليفة وهي بعنوان عامة قرطبة منذ بداية الفتنة حتى نهاية عصر المرابطين ٣٩٩- ٥٤٣هـ/ ١٠٠٩- ١١٤٨م وهي رسالة دكتوراه صادرة من كلية الآداب/ جامعة المنيا سنة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، وَقَّدم الباحث فيها صورة تفصيلية قيمة لعامة قرطبة في فترة الدراسة إذ تناول حقبة تاريخية كبيرة تقرب من القرن ونصف القرن، إلا أن سقوط الخلافة لم يحظ بالقدر الكافي من الدراسة على الرغم من أنه يقع ضمن الحقبة التاريخية للدراسة. ثم دراسة أحمود أحمد الحسين وهي علاقات الأندلس بالممالك النصرانية في الشمال من سقوط الخلافة إلى نهاية ملوك الطوائف، وهي رسالة دكتوراه صادرة من كلية الآداب/ جامعة عين شمس سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، وعلى الرغم من الجهد الواضح فيها غير أنها عرجت على سقوط الخلافة دون أن تميز بين الانهيار والسقوط ومظاهرهما كما أنها لم تعرج على وقائع ذلك السقوط، وهذه سمات عامة على حد علمي لأغلب الدراسات التي تناولت سقوط الخلافة ضمن العناوين الرئيسية أو ضمن العناوين الفرعية، ولكن على الرغم من ذلك فنحن نعترف بفضلهم وسبقهم

في طرح بعض الجوانب القريبة التي تتعلق بهذه الدراسة. إيماناً بأنه لا يوجد موضوع كامل كل الكمال أو جديد كل الجدة.

تتركز إشكاليات الموضوع حول دراسة سقوط الخلافة لكونها مرحلة فاصلة في تاريخ الأندلس لم يتناولها الباحثون بشكل تفصيلي كامل بل كانت صفة العموم غالبة في دراستها، وان ما كتب حتى الآن لا ينهض بحقها، وبذلك فإن دراسة الموضوع سوف يسهم في إظهار جوانب عديدة تتعلق بالانهيار والسقوط إذ لابد من دراسة كلٍّ على حِدة ومعرفة مظاهر كل منهما، وكذلك التركيز على عدة تساؤلات حول المسبب لفتنة أهل الأندلس التي سبقت السقوط ومهدت له فهل كان محمد بن عبد الجبار الذي سفك الكثير من الدماء، وإخفائه للخليفة والادعاء بأنه مات فضلا عن تشجيعه للعامة في قتل البربر، أم البربر ودورهم في الفتنة؟ وما هو الدور الذي لعبه عامة قرطبة في تلك المرحلة؟ وهل كان عامل استقرار أم عامل هدم في مساندة من يعتلي دفة الحكم؟ وهل من اعتلوا كرسي الخلافة كانوا رجال المرحلة أم كانوا شكلاً دون مضمون؟ وبذلك عد كل ما تقدم من إشكاليات الدراسة.

لقد تم تجاوز كل هذه الإشكاليات من خلال الاستعانة بالمصادر الأندلسية الأصلية الخاصة بحقبة الدراسة والبحث فيما بين السطور للتعرف على كل ما تعلق بالمعلومات التاريخية التي سخرت لخدمة الموضوع، إذ لا تخفى الصعوبة من جراء ذلك والبحث عن معلومات مبعثرة هنا وهناك، والتداخل في العناوين، وقد تمت الاستعانة بعدد من المراجع التي خدمت الدراسة، ولأجل وصف وتفسير أحوال الأندلس، وتحليل أحداث الحقبة

التاريخية موضوع الرسالة وللوقوف على ما يتعلق بانهيار وسقوط الخلافة فقد اعتمدتُ المنهج الوصفي والتحليلي في معالجة المادة التاريخية التي توفرت للدراسة. كما اتبع الباحث منهج البحث التاريخي الذي يعتمد على التحليل ونقد الحوادث التاريخية مستخدما الترتيب الموضوعي مع مراعاة الترتيب الزمني في عرض الحوادث التاريخية.

فقد قسم موضوع الكتاب إلى مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة تتبعها الملاحق ثم ثَبَت المصادر والمراجع.

تعرض **التمهيد** إلى الظروف والملابسات التي أحاطت بتولي عبد الرحمن الناصر الإمارة في الأندلس، وقيام الخلافة الأموية فيها والأسباب الموجبة لقيامها ثم إلى طور القوة ومظاهره إبان حكم الخليفتين عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر في الجوانب السياسية التي تمثلت في تحقيق وحدة الأندلس بعدما كانت سلطة الأمير لا تتعدى حدود العاصمة قرطبة، وبناء الجيش والاسطول الذي حظي باهتمام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، ثم القضاء على الإقطاع الذي كان يؤثر سلباً على النظام السياسي.

ومن ثم تم التطرق إلى الجوانب الاقتصادية إذ ازدهرت قوى الإنتاج وتم الاهتمام بها بشكل واضح، كما اهتم الناصر بالنظام المالي عندما أنشأ دارا لسك العملة، وتم التطرق أيضاً إلى مظاهر النشاط الاقتصادي عندما تحولت المدن من مدن دفاعية إلى مدن تنبض بالنشاط الاقتصادي. وفي الجوانب الاجتماعية تم القضاء على النزعات العنصرية التي كان تمرد عمر بن حفصون أخطرها، كما استطاع الناصر تحقيق التجانس الاجتماعي في المجتمع فضلاً عن ازدهار

العمران الحضري عندما تم الاهتمام ببناء المدن والمرافق العامة. وتم التطرق أيضاً إلى الجوانب الثقافية من خلال انتشار الحرية والتسامح الديني الذي عم البلاد، وازدهار العلوم والآداب والفنون.

خصص **الفصل الأول** لمظاهر انهيار الخلافة من خلال التطرق إلى ظهور الحُجاب، وانتزاع السلطة من الخليفة وتعاظم النزعات الإثنية والطائفية خاصة عندما سعى الحكام الأمويون إلى القضاء على النفوذ العربي في الأندلس مقابل اصطناع الموالي والصقالبة ومنحهم الثقة مما زاد من نفوذهم، وعلى نفس المنوال سار المنصور بن أبي عامر الذي استقدم أعداداً كبيرة من البربر لأجل القضاء على النفوذ العربي مما أدى إلى تعاظم النعرات الإثنية والطائفية، فضلاً عن التطرق إلى الحركات الانفصالية والتي تمثلت في حركة عبد الله بن المنصور بن أبي عامر وحركة مجاهد الصقلبي الذي غادر إلى شرق الأندلس مع عدد من أتباعه، وحركة الحسن بن كنون وتحالفه مع الفاطميين، وكذلك تم تناول الانحطاط الثقافي من خلال الحديث عن حرق وبيع المكتبات بسبب الحاجة إلى المال من قبل الدولة ثم إلى قتل وتشريد العلماء والأدباء إذ قتل المؤرخ ابن الفرضي والفقيه محمد بن سري.

تناول **الفصل الثاني** عوامل سقوط الخلافة، إذ سلط الضوء على جملة من العوامل السياسية كتولية الخليفة الحكم المستنصر العهد لابنه الصبي هشام، وسلب ولاية العهد التي تجرأ وأقدم عليها عبد الرحمن شنجول في سابقة خطيرة كانت نتائجها أن أطيح به وبأسرته، وسياسة التمييز العنصري والقسوة المفرطة التي مارسها الحكام.

أما العوامل الاقتصادية فقد تمثلت في تعاظم النزعة الدنيوية والكوارث الطبيعية التي ضربت الأندلس. أما العوامل الاجتماعية فكانت في سيادة الإقطاع العسكري مقابل تدهور الطبقة الوسطى، فضلاً عن فساد النظم المتبعة. ثم العوامل العسكرية التي كانت غزوات المنصور بن أبي عامر إحداها، والأخرى هي ضعف الجيش والاسطول الذي تأثر بشكل واضح بتدهور الأوضاع العامة في الأندلس.

كرس **الفصل الثالث** لمظاهر سقوط الخلافة من خلال تناول المظاهر السياسية وهي ضعف الخلفاء الأمويين منذ عهد هشام المؤيد حتى آخر خليفة أموي بالأندلس قبل سقوط

الخلافة وهو هشام المعتد بالله، ووجود أكثر من خليفة في وقت واحد في سابقة خطيرة لم تعرفها الأندلس من قبل، فضلاً عن استعانة أهل المدن الأندلسية بحكام المدن الأندلسية الأُخرى. أما المظاهر الاقتصادية فتمثلت في التدهور الحاصل في قوى الإنتاج (الزراعة والصناعة والتجارة)، وإفلاس الخزينة من الموارد اللازمة لتسيير أمور الدولة، ثم المظاهر الاجتماعية التي كان أولها الصراع العنصري بين مكونات المجتمع الأندلس، وفقدان هيبة الخليفة الذي أصبح ألعوبة في يد الكثيرين، وكذلك تعاظم دور الطبقة العامة في الأندلس، فضلاً عن تعاظم الخطر النصراني.

وانصب **الفصل الرابع** على إبراز وقائع السقوط ونتائجه، إذ تناول الوقائع السياسية التي تمثلت في المؤامرات التي حدثت في القصر الخلافي كمؤامرة السيدة صبح ومؤامرة الذلفاء زوجة المنصور بن أبي عامر، واستيلاء

الحموديون على الخلافة. أما الوقائع الاقتصادية فتمثلت في الأزمات الاقتصادية التي عصف بالأندلس كأزمة ارتفاع الأسعار بسبب الحصار الذي فرضه البربر على قرطبة، فضلاً عن الأزمة المتعلقة بقلة المال، وكذلك تضمنت الوقائع الاقتصادية حياة البذخ والشطط الجبائي، إذ عم البذخ والترف واستشرى الشطط الجبائي عندما لجأ الملوك إلى إثقال كاهل الرعية بالضرائب الباهظة وغير المنصفة. كما تم تناول الوقائع الاجتماعية فتمثلت في تدمير مدن الأندلس إذ دُمِّرَ عدد من مدن الأندلس بعد أن كانت ترفل بالحيوية والنشاط التجاري، كما تم التطرق إلى تحصين المدن بسبب شعور قادة تلك المدن بالأخطار المحدقة بهم، ثم كان الحديث عن ضعف الوازع الديني وما أصاب المجتمع الأندلسي من استكانة واستسلام نتيجة لضعف ذلك الوازع، عندما تعرض النصارى لشخص الرسول محمد ﷺ والنيل من الإسلام دون أي اعتراض من المسلمين.

أما نتائج سقوط الخلافة فتركزت حول النتائج السياسية إذ كان أولها سقوط الخلافة عندما أقدم وزراء قرطبة على اتخاذ قرار إلغائها الذي لم يسبق أن اتخذ بالعالم الإسلامي من قبل، ثم ظهور دويلات الطوائف تلك الدويلات الضعيفة المتصارعة فيما بينها والتي كانت تسعى كل واحدة منها للسيطرة على الأخرى بسبب تعاظم الصراع الاثني فيما بينها.

كما تم تناول النتائج الحضارية متمثلة في الازدهار العلمي والثقافي، إذ تطرقت إلى ازدهار العلوم في دويلات الطوائف التي كان ملوكها يقلدون الخلفاء الأمويين في تعلقهم بالعلم والعلماء لإعتقادهم بأن هذا الفعل أفضل

دعاية لهم، وكذلك ازدهرت العلوم الدينية

وعلم الحديث والعلوم الإنسانية. كما ازدهر الأدب أيضاً إذ أصبحت بلاطات هؤلاء الملوك مراكز جذب واستقطاب للشعراء والأدباء وكانوا يغدقون عليهم بالعطايا والهبات. أما الفنون فقد ازدهرت هي الأخرى كالغناء والموسيقى وانتشر العمران كما ازدهر الخط الإشبيلي.

أما النتائج الاجتماعية فتم التطرق من خلالها إلى خلخلة البناء الطبقي، إذ عاشت طبقة الملوك في ترف ورغد العيش ترافقها الطبقة الارستقراطية، في حين كانت الطبقة العامة تعاني العوز والفاقة. كما تعاظم الصراع الاثني والمذهبي فراحت كل دولة تسعى لاكتساح الأخرى، فبنو عباد العرب في إشبيلية سعوا جاهدين للقضاء على دولة الصقالبة أو دولة البربر، ودولة البربر أيضاً كان لها نفس المسعى حتى ازدادت تلك الصراعات الاثنية وتعاظمت، وكذلك تعاظم الصراع المذهبي الذي تمثل في اضطهاد المذهب الظاهري ممثلا بداعيته في الأندلس ابن حزم الأندلسي الذي تعرض للتنكيل والافتراء.

وأخيراً تم تناول الخاتمة التي تم التطرق من خلالها إلى أهم النتائج التي تمخضت عنها دراسة موضوع الرسالة.

دراسة نقدية تحليلية لأهم مصادر ومراجع الدراسة:

لما كان موضوع الدراسة يقوم على دراسة انهيار وسقوط الخلافة الأموية في الأندلس من خلال دراسة الانهيار ثم السقوط، فقد كان الاعتماد الأكبر على جملة من المصادر المختلفة والتي استطاعت أن تغني الرسالة بالمعلومات

القيمة، فضلاً عن عدد من المراجع التي كانت رديفا لتلك المصادر:

أولا: المصادر

أ / كتب التاريخ العام:

- يأتي في مقدمة تلك الكتب: كتاب **المقتبس** من أنباء أهل الأندلس لابن حيان (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م): إذ من المعلوم أن هذا المؤلَّف الضخم قد تعرض للضياع، إلا بعض القطع التي وصلت إلينا لا سيما الأجزاء المطبوعة منه التي حققها كل من محمود علي مكي الذي أشار إلى الفتنة وحَمَّل كل من البربر وأهل قرطبة مسؤولية ما حصل. وتحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي الذي أفاد الدراسة بمعلومات عن الحكم المستنصر الذي اتبع سياسة والده في الحكم، فضلاً عن نشر شالميتا الذي زود الدراسة بمعلومات قيمة عن معركة الخندق والهزيمة التي لحقت بالمسلمين في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقد كان كتاب ابن حيان ذا فائدة كبيرة للرسالة إذ اعتمد في الجزء الخاص بتحقيق الدكتور الحجي على من سبقه من المؤرخين عندما نقل عنهم الكثير من الروايات كالرازي ومحمد بن يوسف الوراق، وبذلك يكون قد حفظ نصوصا غاية في الأهمية فقدت لأولئك المؤرخين، ويعد ابن حيان شيخ مؤرخي الأندلس لما في كتاباته من دقة كبيرة ونقد صائب، ولكن على الرغم من رصانة كتابات ابن حيان فإن ما يُؤْخَذُ عليه في كتاباته تلك أنه صب جل اهتمامه على الجوانب السياسية والعسكرية والفتن والثورات متناسيا الجانب الحضاري الذي لم يُولِهِ الاهتمام الكافي سوى بعض الإشارات المتفرقة هنا وهناك.

- وكتاب **الكامل في التاريخ** لابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

فعلى الرغم من كون المؤلف مشرقياً كما هو معروف فإنه أبدى اهتماماً كبيراً بحوادث المغرب والأندلس فهو وان تناول تاريخ الأندلس بنوع من الاختصار إلا انه يعد من أوثق من كتب عن الأندلس من مؤرخي المشرق إذ اتبع نظام الحوليات في سرد الحوادث، وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في مواضع عدة خاصة ما تعلق بالفتنة واستعانة الخلفاء بالنصارى والأحداث المرافقة لذلك، وهذا المصدر يتألف من أحد عشر مجلدا وقد أفادت الدراسة من المجلد السابع والثامن.

- وكتاب **البيان المغرب** في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي(ت ٦٩٥ه/١٢٩٥م)، وهو من الكتب الجامعة النافعة لتاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ويعد من المصادر المهمة التي اهتمت بالتاريخ السياسي والعسكري للمغرب والأندلس، مع إيراده إشارات عن الحوادث الاجتماعية والاقتصادية، ويقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء، وتمت الإفادة من الجزءين الثاني والثالث بشكل واسع، إذ قدما معلومات وافية عن فترة الدراسة وخاصة ما تعلق بأحداث الفتنة التي ضربت الأندلس والأحداث التي رافقت ذلك، وقد أفادت الدراسة منه في كل فصل من فصولها، والكتاب مهم جدا لهذه الدراسة لما يملكه من معلومات غزيرة أغنتها، ولكن مما يُؤْخَذُ على ابن عذارى في كتابه هذا أنه كان ناقلا أكثر منه ناقدا إلا في بعض الأحيان، ولكن على الرغم من ذلك، فإن المعلومات التي قدمها أفادت الرسالة فائدة كبيرة الأمر الذي جعله يتقدم المصادر الأخرى من حيث الأهمية للدراسة.

- كتاب تاريخ إسبانية الإسلامية أو أعمال الأعلام فيمن بويع قبل

الاحتلال من ملوك الإسلام لمؤلفه ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، وهو من المصادر المهمة، ويتألف من ثلاثة أقسام الأول اختص بالمشرق والثاني اختص بتاريخ إسبانيا الإسلامية والثالث اختص بتاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، وقد أفادت الدراسة من القسم الثاني فائدة كبيرة إذ تطرق إلى معلومات قيمة عن عصر الخلافة في الأندلس وما تعلق بالخلفاء الأمويين هناك، كما زود الدراسة بمعلومات عن حروب المنصور بن أبي عامر ضد النصارى في الشمال الإسباني، وكذلك نص وصية المنصور إلى ابنه عبد الملك المظفر، فضلاً عن فائدة القسم الثالث، وعلى الرغم من مروره السريع بما حدث في إسبانيا واختصاره الشديد في ذكر الأحداث، فإنه قدم معلومات قيمة لفصول الرسالة خاصة ما تعلق منها بالأندلس، كما أن لإبن الخطيب كتباً أخرى أفادت منها الدراسة وهي الإحاطة الذي أفيد منه في التمهيد والإشارة في أدب الوزارة أفيد منه في الفصل الأول.

ب / **كتب الأنساب والتراجم**:

- كتاب **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** للحميدي (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وهو من الكتب التي قدمت معلومات مفيدة للرسالة عن طريق التراجم الواردة فيه، وقد اعتمد منهجا محددا حرص فيه على الالتزام في أغلب تراجمه والتركيز على نسب صاحب الترجمة وشيوخه وسني ولادته ووفاته، إلا أن الحميدي ألف كتابه في بغداد بعيدا عن الأندلس، ومما يُؤْخَذ عليه اعتماده على ذاكرته الشخصية في ذكر تراجمه.

- **كتاب الحُلَّة السِّيراء** لابن الأبَّار القضاعي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) وهو

من الكتب المهمة التي تناولت أخبار المغرب والأندلس على هيئة تراجم من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري، وهذا الكتاب ذو أهمية واضحة للدراسة من خلال التراجم التي قدمها فضلاً عن المعلومات القيمة عن الخلفاء الأمويين في الأندلس ومحاولاتهم الإطاحة بالأسرة العامرية واستعادة السلطة منهم، ويتضح من ثنايا الكتاب أن هذا المؤرخ كان ذا اطلاع واسع على تاريخ المسلمين في الأندلس، وللمؤلِّف كتب أخرى أفادت الدراسة منها في بعض المواضع وهي التكملة وأعتاب كتاب.

ج / **كتب الجغرافية**:

- كتاب **نزهة المشتاق** في اختراق الآفاق للإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م) ويعد من الكتب التي أفادت الرسالة في تعريف بعض المدن لما تضمنه من معلوماته قيمة عن بعضها، وهو مؤلَّف من جزءين.

- كتاب **الروض المعطار** في خبر الأقطار للحميري (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) الذي يعد من أهم المعاجم الجغرافية التي فصلت القول في مدن الأندلس، وقد أفادت الرسالة منه في تعريف بعض المدن، ولكن على الرغم من الصفة العامة للكتاب وهي الصفة الجغرافية بالطابع العام فإنه قدم معلومات تاريخية قيمة لاحتوائه على بعض الروايات التاريخية.

د / **كتب الأدب**:

- كتاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) وهو موسوعة أدبية تاريخية تتضمن تراث القرن الخامس الهجري

وقصد ابن بسام من هذه التسمية للكتاب الإشادة بمحاسن أهل بلده الأندلس، ولكون ابن بسام أديبا فقد اعتمد في مادته التاريخية على روايات وكتب لم تصل إلينا وخاصة للمؤرخ الأندلسي ابن حيان فضلاً عن اعتماده على مؤرخين أندلسيين آخرين، وقد أفاد الدراسة في كافة فصولها وما تعلق بسياسة المنصور بن أبي عامر وسياسة الحموديين تجاه البربر ووصفه الدقيق لمدة حكم الخليفة سليمان المستعين والخلفاء الأمويين الآخرين، ومما يسجل عليه سلبا في أسلوبه أنه يميل إلى استخدام الكثير من المحسنات البديعية كالسجع مثلا، ويقسم الكتاب إلى أربعة أقسام رئيسية وقد أتحفنا بمعلومات قيمة ومفيدة نفعت الدراسة لاسيما الأقسام الأول والثالث والرابع وما تعلق بعصر الخلافة.

- كتاب **نفح الطيب** من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) ويعد موسوعة كبيرة للمجتمع الأندلسي تحدث فيها المؤلف في النواحي التاريخية والأدبية والاجتماعية وهو من المصادر الأندلسية المهمة، وعلى الرغم من أن مؤلفه متأخر فإن أهميته تنبع من كونه نقل قسما من معلوماته من مصادر لم تصل إلينا وقد أمدَّ الدراسة بمعلومات قيمة أغنتها خاصة ما حصل في عصر الخلافة من أحداث كسياسة المنصور بن أبي عامر وتفضيله البربر على العرب وما تعلق بالفتنة وإذلاله للنصارى فضلاً عن تطرقه إلى دويلات الطوائف، ومما يُؤْخَذ على أسلوب المقري أنه يكثر من الاستطراد وتجزئة الأحداث التاريخية. والكتاب مؤلَّف من أحد عشر جزءاً، وقد أفادت الدراسة من جزئه الأول في الغالب.

كما كان هناك بعض المصادر الرديفة التي خدمت الدراسة من حيث المعلومات المفيدة في جوانب مختلفة مثل **كتاب الصلة** لإبن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) الذي أفاد الدراسة في تزويدها بعدد من التراجم والمعلومات المفيدة الأخرى. **وكتاب صفة جزيرة الأندلس** منتخبة من كتاب الروض المعطار للحميري (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) قد نفع الدراسة في بعض الجوانب الجغرافية من خلال التعريف بعدد من المدن والمواقع، وكتاب **المُغرب في حلى المغرب** لإبن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) الذي أفاد الدراسة من خلال ما تضمنه من تراجم لشخصيات أندلسية بارزة.

ثانيا: المراجع الحديثة:

أفاد الدراسة عدد من المراجع المهمة أيضاً وكان أبرزها كتاب " **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي** ﷺ للدكتور محمود إسماعيل في الجزءين الأول والثاني حيث قدم معلومات قيمة في الفصل الأول والثاني خاصة ما تعلق منها بالطبقة الوسطى في الأندلس وعجزها عن مواجهة قادة العسكر، وكان لكتابه الثاني " **الأدارسة حقائق جديدة** " فائدة كبيرة أيضاً في الفصل الأول والرابع من خلال التعرف على دور الأدارسة في المغرب وصراعهم مع الأمويين فضلاً عن التعرف على طبيعة الصراع بين زناته وصنهاجه الذي كان دافعه تجاريا بالدرجة الأساس. والكتاب الآخر هو " **دولة الإسلام في الأندلس** " بعصريه الأول والثاني لمحمد عبد الله عنان الذي أفاد الدراسة في كافة فصولها، خاصة ما تعلق بدور الحجاب في الأندلس. والكتاب الآخر هو **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس** للسيد عبد العزيز سالم الذي أتحف

الدراسة بمعلومات قيمة في كل فصولها، لعل منها انتشار الإقطاع في الأندلس ومعلوماته عن أحداث الفتنة التي ضربت الأندلس، وهناك كتب أخرى لنفس المؤلف لا تقل أهمية عمن سبقها منها كتاب **قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس** الذي أفاد الدراسة في الفصل الأول والثالث والرابع من خلال تطرقه إلى موضوعات عدة منها الطريقة التي وصل بها علي بن حمود إلى حكم الأندلس، وما تعرضت له منيات قرطبة من تدمير في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الأندلس. كما يعد كتاب **الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة** لمحمد عبده حتاملة من الكتب المهمة التي زودت الدراسة بمعلومات عن الصراعات الداخلية في الأندلس وما تمخض عنها فضلاً عن دور الخلفاء في تلك المرحلة الصعبة التي ألمت بالأندلس وكل ذلك في الفصل الأول والثاني والرابع.

وفي نهاية هذه المقدمة أقول إن الله خصَّ كتابه بالكمال، وبحسن التمام، ونفى ذلك عن غيره بلا جدال فحسبي أني بذلت جهدي في عملي هذا مبتغياً رضا الله أولاً، والوصول إلى الحقيقة وهي غاية كل باحث ثانياً، فإن أصبت في تفسيري وتحليلي فهي نعمة من الله، وإن أخطأت فلي نصيب المجتهد، داعيا الله عز وجل أن يوفق كل من مد لي يد العون، والحمد لله رب العالمين.

obeikandi.com

التمهيد

هذا عرض للمحاور الأساسية التي يتعرض لها هذا التمهيد، والذي يتكون من محورين أساسيين الأول: قيام الخلافة الأموية في الأندلس، والثاني: طور القوة ومظاهره إبان حكم الخليفتين الناصر والمستنصر.

أما المحور الأول تطرق إلى الظروف والملابسات التي أحاطت مرحلة تولي الأمير عبد الرحمن الناصر مقاليد الأمور في الأندلس، فضلاً عن تسليط الضوء على الأسباب الموجبة لإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م من خلال تغير الأوضاع السياسية التي أحاطت الأندلس.

أما المحور الثاني تناول الجوانب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية ففي الجانب السياسي تم التطرق إلى تحقيق الوحدة الوطنية للأندلس، ثم الحديث عن الجيش والاسطول إذ حظيا باهتمام الخليفة الناصر، وكذلك كان للعلاقات الخارجية نصيب مما تم التطرق إليه إذ بلغت ذروتها في عهد الخليفتين الناصر وابنه المستنصر، كما تطرق إلى القضاء على الاقطاع.

أما الجانب الاقتصادي فقد تعرض لقوى الإنتاج المتمثلة في الزراعة والصناعة والتجارة وازدهار تلك القوى ازدهارا كبيرا. وتناول النظام المالي إذ اهتم الناصر بالعملة عندما عمل على إنشاء دار للسكة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وإبراز مظاهر النشاط الاقتصادي الذي ظهر جليا من خلال تحول المدن من مدن دفاعية إلى مدن تنبض بالنشاط الاقتصادي.

أما الجانب الاجتماعي فقد تضمن الإشارة إلى القضاء على النزعات العنصرية، التي كان أخطرها تمرد عمر بن حفصون وتحقيق التجانس الاجتماعي، والتطرق إلى ازدهار العمران الحضري حيث الاهتمام ببناء المدن كمدينة الزهراء والاهتمام بالشوارع، والمارستانات، والحمامات.

أما الجانب الثقافي فكان أبرز ملامحه التسامح الديني والحرية اللذين كانا من سمات عصر الخليفتين الناصر والمستنصر، والذي شمل كل أهل الذمة من يهود ونصارى، ثم الازدهار الكبير للعلوم والآداب والفنون.

أولا: قيام الخلافة الأموية في الأندلس

تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الإمارة الأموية في الأندلس بعد وفاة جده الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م وكان أهلا لها لما له من مميزات أهلته لذلك لم تتوفر في غيره من الأمراء الأمويين[١]، ((ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، ومضطربة بنيران المتقلبين، فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، واستقامت له الأندلس في سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من أيامه...))[٢]، أما أفراد العائلة الحاكمة فقد عزفوا

(١) الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، ص ١٨؛ ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م، ٣ / ٤٦٤ .

(٢) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق:إحسان عباس،دار صادر، بيروت،١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م،١/٣٥٣

عن تولي منصب الإمارة لما يكتنف ذلك من مصاعب وأخطار ومسؤوليات جسام جعلهم يزهدون في ترأس الإمارة ويرحبون بعبد الرحمن أميرا عليهم، وقد عبر عن ذلك عمه أحمد بن عبد الله حين قال: ((والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا فأسأل الله إيزاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد))[١]. وكان قد قتل أبوه محمد بن عبد الله في الثاني والعشرين من رمضان سنة ٢٧٧ه/ سبتمبر: أيلول ٨٩٠ م الذي كان مرشحا لولاية العهد، إذ قتل على يد أخيه المطرف الذي طمع في تولي الإمارة والحصول عليها[٢]. وما لبث الأمير عبد الله بن محمد أن أمر بقتل ابنه المطرف جزاءَ ما ارتكبه من قتل لأخيه، وراح يغدق عطفه ومحبته على حفيده عبد الرحمن، وأسكنه في مسكنه، وأقعده في الأعياد مكانه ليسلم عليه الجند، وكانت لعبد الرحمن حظوة تفرد بها عند جده دون أعمامه وكأنه كان يؤهله لتولي الإمارة من بعده[٣]. ولم يزل يلقب بلقب الأمير مدة ست عشرة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، ط٤، القاهرة، ١٤١٨ه/ ١٩٩٧م، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٤؛ محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي أفريقية ٦٤ – ٨٩٧ ه / ٦٨٣ – ١٤٩٢م، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٦ه / ١٩٨٦م، ص ١٥٦.

(٢) المقري: المصدر السابق، ١ / ٣٥٣؛ أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط ١١، القاهرة، ١٤١٩ه / ١٩٩٩م، ص ١٠٣.

(٣) ابن عذارى، أبو عبد الله محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط ٢، بيروت، ١٤٠١ه/ ١٩٨٠ م، ٢ / ١٥٧؛ ابن الخطيب، لسان الدين: تاريخ اسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،

سنة. ولم يكن أمراء بني أمية قبله ليفكروا في الإقدام على منافسة الخلافة العباسية في ألقاب الخلافة، ويبدو أن مرد ذلك إلى أنهم كانوا يرون الخلافة تراثا لآل البيت، ويدركون قصورهم عن ذلك بقصورهم عن ملك الحجاز موطن العرب وأصلهم، فضلاً عن بعدهم عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية. وبعبارة أخرى فإن أمراء بني أمية يرون أن الخلافة أحق لمن يملك الحرمين(١).

لكن تغير الأحوال السياسية المحيطة بالأندلس والعالم الإسلامي، المتمثلة في ضعف الخلافة العباسية في المشرق وانتشار الفوضى والاضطرابات، التي أدت إلى مقتل الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠ه/ ٩٠٧- ٩٣٢م) من غير أمر من مؤنس المظفر أحد الموالي الأتراك الذين حكموا البلاد بصورة فعلية على الرغم من وجود الخليفة العباسي، الذي كان اسماً لا غير(٢)، كما أن ظهور الفاطميين في جنوب الأندلس وإعلانهم الخلافة وتسميهم أمراء المؤمنين، ذلك كله جعل الأمير عبد الرحمن يُقْدم على إعلان الخلافة في الأندلس بعد أن استقرت له الأوضاع فيها، وأنه أحق ودولته بذلك من دولة

١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤ م، ص ٢٩.

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق: يحيى مراد، مؤسسة المختار، القاهرة،١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م)، ص ٢٨٤؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول/ القسم الثالث / ص ٤٢٩ .

(٢) ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد: الكامل في التاريخ، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ه/ ١٩٨٧م، ٧/ ٧٤.

منحلة تتقاذفها الفوضى والإضطرابات، وأخرى طارئة ظهرت فجأة على مسرح الأحداث[١]. وقد أعلنت الخلافة الأموية في الأندلس **بمرسوم**[٢] أعلن للناس عن طريق صاحب الصلاة **أحمد بن بقي**[٣]، بموجبه يخاطب الأمير عبد الرحمن بأمير المؤمنين الناصر لدين الله وذلك في الثاني من ذي الحجة سنة ٣١٦هـ/ فبراير: شباط سنة ٩٢٩ م[٤]، إيذانا بعصر جديد عرف بعصر الخلافة الأموية في الأندلس الذي شهد إنجازات كبيرة كان لها كبير الأثر على أحوال الأندلس.

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ١٨؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٣٥٣؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٣٠؛ عيسى الحسن: الأندلس في ظل الإسلام، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م، ص ١١٣.

(٢) انظر: ملحق (٦)، ص ٢١٦.

(٣) هو أحمد بقي بن مخلد يكنى أبا عبد الله تولى منصب قاضي قرطبة في الأندلس توفي سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م .انظر: ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، عني بنشره: عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، ط ٢، القاهرة، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م، ١ /٤٤.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٥٧؛ سامية مصطفى مسعد: العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة،١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م، ص ٢٧. وكان يوم إعلان الخلافة يوماً مشهوداً تَغَنَّى به شاعرُ البلاط ابن عبد ربه حين قال:

بَدَا الهلالُ جديدا..... والمُلْكُ غَضٌّ جديدُ

يا نعمةَ الله زيدي..... فما عليكِ مزيدُ

إنْ كان للصَّوْمِ فِطْرٌ..... فأنت للدَّهْرِ عِيدُ

انظر: ابن عبد ربه، احمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، ط ٢، القاهرة، ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣ م، ٥ / ٢٢٣.

ثانيا: طور القوة ومظاهره إبان حكم الخليفتين الناصر والمستنصر

أ – سياسيا:

١ – تحقيق وحدة الأندلس

مما لاشك فيه أن الأمير عبد الرحمن الناصر ورث تركة ثقيلة باعتلائه دفة الحكم في الإمارة الأموية في الأندلس، نتيجة لكثرة الفتن وأعمال الشغب التي حدثت ضد السلطة المركزية في عصر الأمراء الثلاثة الذين سبقوا عبد الرحمن وهم: محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨– ٢٧٣هـ/ ٨٥٢– ٨٨٦ م) والمنذر بن محمد (٢٧٣ – ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ – ٨٨٨ م) وعبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ – ٩١٢ م)، حتى آلت البلاد إلى حالة من التمزق والتشرذم بل ونضبت موارد البلاد وخارت قواها، ولم تعد سلطة الأمير تتعدى العاصمة قرطبة[١]، وازدادت الأوضاع تردياً عندما ولى عبد الرحمن الناصر، حيث الأندلس ((جمرة تحتدم، ونار تضطرم؛ وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الآفاق))[٢].

يتضح مما تقدم افتقار الأندلس إلى القيادة الحازمة وحاجتها إليها، والمنقذ الذي ينقذها من هذا التشرذم والاضطراب والتحديات الكبيرة التي تواجهها، وعلى ضوء الموقف الذي ستسعى هذه القيادة إلى اتخاذه سيتوقف مصير

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثاني / ص ٣٤٤؛ خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار المدار الإسلامي، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٥٥.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٢٩.

الأندلس وحضارتها التي ما كانت لولا كدح السنين الطوال بالحركة الدؤوب والرؤية الصائبة التي تستند إلى الحق من خلال اتباع سياسة تقوم على الحزم والشدة واللين والاعتدال، تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته فتخرج منها ظافرة وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق. لذلك انبرى الأمير عبد الرحمن الناصر لتلك التحديات وواجهها بصلابة وجلد، وكانت أولى خطواته السعي لوحدة البلاد، إذ اتبع سياسة تقوم على أساس اللين والشدة، فأرسل الكتب إلى العمال في مناطق الأندلس كافة يطلب الطاعة والاستسلام، وأرسل من ينوب عنه إلى أنحاء البلاد لأخذ البيعة له، ثم بدأت باكورة عملياته العسكرية بتطهير **قلعة رباح**[١]، كما استطاعت قوة من قوات الأمير عبد الرحمن الناصر استرجاع مدينة **استجة**[٢] من المتمردين

(١) مدينة في الأندلس تقع بين قرطبة وطليطلة لها حصون حصينة، وهي مدينة محدثة في أيام بني أمية، وهي مسماة في الأغلب باسم التابعي علي بن رباح اللخمي الذي اشترك في فتح الأندلس، وسقطت قلعة رباح في يد الفونسو السادس مع طليطلة سنة ٤٧٦ه / ١٠٨٥م ثم استعادها أبو يوسف يعقوب الموحدي بعد انتصاره في موقعة الأرك بعد أن تبادلها المسلمون والنصارى مرات عدة. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار جمعه سنة ٨٦٦هـ، نشرها وصححها: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط٢، بيروت، ١٤٠٩ه/ ١٩٨٨م، ص ١٦٣؛ ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحُلَّة السِّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٤٠٦ه / ١٩٨٥ م، ٢ / ١٧٧ – ١٧٨ الهامش نقلا عن الرازي.

(٢) مدينة عظيمة وقديمة من مشاهير مدن الأندلس، بينها وبين مدينة قرمونة خمسة وأربعون ميلا، تقع على نهر سنجل، واسعة الأرباض ذات أسواق عامرة، كثيرة الثمار والبساتين. وللمزيد من التفصيل انظر: الاصطخري، ابن اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي: المسالك

أتباع **عمر بن حفصون**[1] كما استطاعت قوات الأمير الاستيلاء على عدد من

والممالك، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، تحقيق: محمد جابر عبد العال، مراجعة: محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٣٨١ه/ ١٩٦١م، ص ٣٥؛ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣١ه / ٢٠١٠م، ٢ / ٥٧٢؛ الحموي، ياقوت أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، تصحيح: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٤ه/ ١٩٠٦م، ١ / ٢٢٤؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٤ – ١٥.

(١) هو عمر بن حفص المعروف بحفصون بن عمر بن حفص بن شيم بن ذبيان بن فرعاوش بن أدفش من المولَّدين الذين اعتنقوا الإسلام حديثا وينحدر من أسر النبلاء الأسبان وينتسب مباشرة إلى كونت قوطي يدعى الفونسوا، كان له من البأس والشدة، أسند أهل الخلاف إليه أمرهم وقلدوه رياستهم، عمل في الجيش الأموي في قرطبة، تمرد في الفترة المحصورة ما بين عهد الأمير محمد حتى عهد الأمير عبد الرحمن الناصر إذ هلك في عهده، ومدة فتنته اثنتان وخمسون سنة وستة أشهر أو ست وثلاثون سنة حتى جنح للسلم والطاعة، تعرض للإهانة من قبل المشرف على مرافق قرطبة محمد بن وليد بن غانم في عهد الأمير محمد، ثار ضد أمراء قرطبة وانضمت إليه أعداد من المسلمين والنصارى الحانقين على حكم العرب في الأندلس، وانتصر على جيش الإمارة في مواضع عدة، واتخذ من حصن ببشتر مركزا ومنطلقا له، وأصبح عمر بن حفصون هذا المنقذ والمخلص عند الأسبان. وللمزيد من التفصيل انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٠٥ – ١٠٦؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٣١؛ الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م، ١٠ / ١٠٩ – ١١٠؛ Aguado Bleye: Manual de historia de Espana , Madrid , ١٩٤٧ , P. ٤١٩.

؛ ليفي بروفنسال: تاريخ اسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية ٩٢ – ٤٢٢ه/٧١١ – ١٠٣١م، ترجمه إلى الاسبانية: اميلو جارثيا، ترجمه إلى العربية: علي عبد الرؤوف البمبي وآخرون، مراجعة: صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٤٢١ه

الحصون منها حصن مارتش وحصن المنتلون، وعلى اثر تلك الانتصارات استسلمت حصون أخرى لم تكن خاضعة لسيطرة الدولة مثل: شمنتان، ومنتيشة، وبغتويرة، وبكور، ونزل أصحابها عن معاقلهم مذعنين بالطاعة للدولة وقد عفا عنهم الأمير عبد الرحمن بعد أن أخلى تلك المواقع منهم وجعل فيها من رجاله، ثم اتجه بقواته إلى كورة البيرة واستطاع السيطرة عليها الأمر الذي جعل الحصون المجاورة لها تعلن الاستسلام مثل: تاجلة وبسطة ومربيط والبراجلة والأسناد(١).

لم يكتف الأمير بما حققه من انتصارات، فتوجه جنوبا صوب منطقة جبل الثلج ففتحها وفتح حصونها المجاورة التي لم تكن تدين بالولاء لسلطة الإمارة، وتوجه صوب حصن شبيلس الذي يعد من أعظم حصون بن حفصون، إذ كان يؤوي بعض الفلول المنهزمة من الحصون التي تسقط بيد الأمير لأجل جعله بؤرة مقاومة، واستطاع السيطرة عليه وإخضاعه في ١٦ شوال سنة ٣٠٠هـ/ اكتوبر: تشرين الأول ٩١٢م، وفي سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م استطاع الأمير السيطرة على مدينة **إشبيلية**(٢) وإخضاعها بعد أن استفاد من

/ ٢٠٠٠م، ص ٢٤٣ – ٢٤٥.

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٥٩ – ١٦٢؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مكتبة الأبحاث التاريخية والأثرية، دار المعارف، بيروت، د. ت، ص ٢٨٠.

(٢) مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة وأسواق كثيرة تقع في الأندلس بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيام وهي من المدن القديمة الأزلية وأصل تسميتها اشبالي وتعني المدينة المنبسطة وتقع على نهر الوادي الكبير، بها اسواق وتجارات رابحة وأهلها أثرياء وأكثر تجارتهم

الخلاف الذي حصل عند بني الحجاج بعد وفاة عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج الذي سبق أن استقل بزعامة المدينة، وحتى عندما استنجد أحد أطراف النزاع بعمر بن حفصون لم يسعفه ذلك وحسم النزاع لصالح الأمير عبد الرحمن[١]. لكن بعد هذه الجهود التي بذلها الأمير عبد الرحمن في بسط سيطرة الدولة على مناطق التمرد عادت كورة رية والجزيرة الخضراء إلى ما كانت عليه من ثورة ضد سلطة الأمير بمساندة عمر ابن حفصون، إلا أن الأمير عبد الرحمن الناصر جَهز لها جيشاً قاده بنفسه استطاع أن يخضعها لسلطة الدولة من جديد بعد أن التقى بقوات عمر بن حفصون في قلعة **طرش**[٢] وانتصر عليها، وقد واصلت السلطة في الأندلس تضييق الخناق على بن حفصون وأتباعه، إذ تمكنت قوات الدولة ممثلة بأسطول الأمير عبد الرحمن من قطع إمدادات الفاطميين التي كانت تصل إلى هذا المتمرد، القادمة من العدوة المغربية وإحراقها، ثم سارت تلك القوات ودخلت الجزيرة الخضراء في أوائل ذي القعدة سنة ٣٠١هـ / نوفمبر: تشرين الثاني ٩١٤م[٣]، لم تكن كورتا تدمير

بالزيت. وللمزيد من التفصيل انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢ / ٥٤١؛ الحموي: معجم البلدان، ١ / ٢٥٤؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨ – ٢٢؛ ابن الوردي، سراج الدين: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تحقيق: أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨ م، ص ٦١.

(١) ابن عذارى:المصدر السابق، ٢/١٦٢ – ١٦٣؛ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ص٢٨١.

(٢) منطقة في الأندلس تشتمل على ولاية وقرى. انظر: الحموي: معجم البلدان، ٦ / ٤١.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٦٤ – ١٦٥، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٧.

وبلنسية بمنأى من قوات الأمير عبد الرحمن إذ سرعان ما جَهَّزَ لهما حملة عسكرية لمطاردة الخارجين على سلطة الدولة فيهما، ثم غزت قواته مدينة **لبلة**[١] ونجحت في السيطرة عليها في ٢٠ رمضان ٣٠٣ه / فبراير: شباط ٩١٦م[٢].

أما نصارى الشمال فزادوا من اعتداءاتهم على ممتلكات المسلمين، ولم يبق في قوس الصبر منزع أمام تلك التجاوزات مما حدا بالناصر إلى تجهيز حملة سنة ٣٠٤ه/ ٩١٦م بقيادة الوزير القائد أحمد بن أبي عبده فالتقى النصارى وهزمهم هزيمة منكرة[٣]، فأراد القائد النصراني أوردنيو الثاني الرد على هذه الحملة بالهجوم على مدينة **طلبيرة**[٤]،

(١) مدينة قديمة حسنة تقع في غرب الأندلس، وتعرف لبلة بالحمراء، لها سور منيع عقد على أربعة تماثيل، صنم تسميه العامة دردب وعليه صنم آخر، وصنم تسميه العامة مكبح وعليه صنم آخر، ونهرها يأتيها من الجبل، بينها وبين البحر المحيط ستة أميال، كثيرة الزيتون والشجر وضروب الثمار، ومن مدنها مدينة جبل العيون. وللمزيد من التفصيل انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢ / ٥٤١؛ الحموي: المصدر السابق، ٧ / ٣١٩؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٦٨ – ١٦٩.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٦٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٩.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٦٩.

(٤) مدينة كبيرة في الأندلس، قلعتها أرفع القلاع حصنا ومدينتها أشرف البلاد حسنا، وتقع أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين، وتقع على نهر تاجه. انظر: الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، بيروت، ١٤٠٥ه / ١٩٨٤ م، ص ٣٩٥.

واستطاع إحراق قراها فاستغاث أهلها بالأمير الناصر الذي جهز حملة لذلك بقيادة الوزير القائد أحمد بن أبي عبدة الذي زحف نحو قلعة **شنت اشتبين**[١] وحاصرها وكادت تسقط لولا وصول أوردنيو الثاني بقواته لنجدتها، وقد استطاع هزيمة الجيش الإسلامي على الرغم من استبسال وصمود الوزير القائد أحمد بن أبي عبدة الذي استشهد في المعركة، وانتقاما من المسلمين قام أوردنيو الثاني بتعليق رأس هذا الوزير القائد على جدران قلعة شنت اشتبين[٢]. وكانت الرواية النصرانية قد بالغت كثيراً فيما حققه النصارى ووصفته بنصر حاسم امتلأت منه أرض المعركة بجثث المسلمين[٣]. وفي سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢١م تحرك الأمير عبد الرحمن نحو نصارى الشمال أيضاً، وفي الطريق ارتاب صاحب **طليطلة** [٤] والمستقل بها من جيش الأمير من أن يغزوه فأظهر الطاعة من خلال خروجه بجيش لمساندة جيش الأمير، واتجه الجيشان

---

(١) (١) كلمة تتكون من مقطعين الأول شنت ويعني بلدة أو ناحية انظر: الحموي: معجم البلدان، ٥/ ٢٩٩، والمقطع الثاني اشتبين هو حصن في الأندلس على يسار الطريق تحت جبل ممتنع انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٦٠.

(٢) (٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ١٧٠ – ١٧١؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٣) (٣) Provencal Live: Histoire de L'Espange Musulmane, vol.II , Paris , ١٩٥٣, P.٣٧ – ٣٨.؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٩٥.

(٤) (٤) هي مركز لجميع بلاد الأندلس، وهي دار الملك حين فتحها طارق وتقع على نهر تاجه إلى الشرق من قرطبة، وهي حصينة لها أسوار حسنة، وجد فيها المسلمون ذخائر عند فتحها. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٣٠ – ١٣١؛ الحموي: المصدر السابق،٦/٥٦.

نحو الشمال، وقاد الأمير حملة في العام نفسه لغزو نصارى الشمال، إذ التقى الجيشان جيش الأمير وجيش مملكتي ليون ونافار مجتمعين فكانت غزوة موبش،التي استمرت ثلاثة أشهر، كان النصر فيها حليف جيش الأمير[١]. أما في مناطق بَنِي ذي النون فقد سَيَّر الأمير قواته لإخضاعها عندما خرجوا زعمائها عن طاعته، إذ اقتحم معقلهم في **شنت برية**[٢] وسيطر عليه، وتم إخضاعهم، وذلك في سنة ٣١٤هـ / ٩٢٧م[٣].

بعد أن نجح عبد الرحمن الناصر في استعادة السيطرة على تلك المناطق وجنوب وشرق الأندلس، كان هناك تحد آخر أمامه في غرب الأندلس متمثلا بمدينة **باجه**[٤] التي تم إخضاعها بعد حصارها حصاراً شديداً كان من نتيجته فتحها في سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، والحال ذاته بالنسبة إلى صاحب **بطليوس**[٥] عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي الذي خرج عن طاعة عبد الرحمن الناصر، والذي

(١) (٤) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٧٥ – ١٧٧.

(٢) (٥) مدينة متصلة بجوار مدينة سالم في الأندلس، وتقع إلى الشرق من قرطبة، وهي من المدن الكبيرة وكثيرة الخيرات وللمزيد من التفصيل انظر: الحموي: المصدر السابق، ٥ / ٣٠٠.

(٣) (٦) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٩١؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٩٠.

(٤) هي أقدم مدن الأندلس من حيث البناء وأولها اختطاطاً، بينها وبين قرطبة مائة فرسخ، وان القيصر هو الذي سماها بهذا الاسم، ومعنى اسمها بكلام من خطها هو الصلح. وللمزيد من التفصيل انظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٣٦.

(٥) مدينة في الأندلس من إقليم ماردة، بينها وبين إقليم ماردة ٤٠ ميلا، بناها عبد الرحمن الجليقي بإذن من الأمير عبد الله. وللمزيد من التفصيل انظر: الحموي: معجم البلدان، ٢ / ٢١٧؛ الحميري: المصدر السابق، ص٤٦.

جهز له جيشاً أخضعه لطاعته بعد أن أبدى شيئا من المقاومة التي لم تجدِ نفعا، وفي نهاية المطاف طلب الأمان وأجابه الأمير إلى ذلك، وقد خضعت بطليوس في سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م[١].

هكذا استطاع عبد الرحمن الناصر السير قدما في طريق الوحدة بعد هذا الجهد الجهيد في بسط سلطة الدولة، والقضاء على جميع النزعات الداعية إلى تشتيت شمل المسلمين، وأن يحقق وحدة البلاد تحت لوائه، وأصبح المسلمون يشكلون قوة كبرى بَثَّت الرعب في صفوف الممالك النصرانية ونفوس سكانها، وبذلك يعد تحقيق الوحدة السياسية واحداً من أعظم إنجازات الخلافة الأموية في الأندلس. فضلاً عن القيادة الناجحة لقوات الدولة في الأندلس بقيادة الناصر الذي قاد الجند بنفسه، إذ لم يعهد الجند ذلك من الأمير عبد الله جد الناصر مما كان له كبير الأثر في زيادة حماسة الجند والاستماتة من أجل تحقيق النصر[٢].

٢- الجيش والأسطول

في ظل حالة التردي التي وصلت إليها الدولة الأموية في الأندلس قبل

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٩٩ – ٢٠٠؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٨٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٢٨٤.

(٢) ستانلي لين بول: قصة العرب في اسبانيا، ترجمة: علي الجارم، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص ١٩. وللتعرف على حدود دولة الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر. انظر: ملحق (١)، ص ٢٠٩.

تولي عبد الرحمن الناصر دفة حكم الإمارة هناك، كان لزاما عليه أن يهتم غاية الاهتمام بأمر الجيش والأسطول، وإصلاحه، وإمداده بالأسلحة والذخائر، وتدريب الجنود، فالجيش هو الأداة التي تمكنه من استعادة السيطرة على شؤون البلاد الداخلية وهو أيضاً السور الحامي من الأخطار الخارجية في البر والبحر، وبلغ اهتمامه بالجيش مبلغاً جعله يخصص ثلث ميزانية الدولة لبناء الجيش(١). وجمع له الجند من أنحاء الأندلس والمغرب كافة، وزاد من الأسلحة والذخائر، كما أن المعارك المستمرة صقلت مواهب الجيش بصنوفه كلها، وأبرزت قادة أشداء، فضلاً عن ارتفاع الروح المعنوية للجند التي زادتها قيادة الأمير عبد الرحمن العمليات العسكرية بنفسه في السنوات الأولى لعهده، وبذلك عُدَّ هذا الجيش واحداً من الجيوش المتطورة لما يمتلك من إمكانيات كبيرة من حيث العُدَّة والعَدَد والكفاءة القتالية(٢). كما أنه اعتمد من بعده ابنه الحكم المستنصر في قوتها العسكرية على فرقة الحرس النظامية في قرطبة وهم من **الصقالبة**(٣)، أما القبائل العربية وقبائل البربر التي توزعت على مناطق

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٣١ – ٢٣٢؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٣٨؛ راغب السرجاني: قصة الأندلس، مؤسسة اقرأ، ط ٣، القاهرة، ١٤٣٢ه / ٢٠١٠م، ١ / ٢٢١.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٤٦؛ سامية مصطفى مسعد: العلاقات، ص ٣٣.

(٣) هم سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أراضيها من بحر قزوين إلى البحر الادرياتيكي، وإن كلمة صقلب Eselave فرنسية قديمة تعني عبد أو رق وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة لأن بعض الجرمان دأبوا على سبي تلك الشعوب وبيع رجالها ونسائها إلى العرب في الأندلس لذا أطلق

الأندلس ومدنها المختلفة فكان عليها تقديم المساعدة العسكرية في الحرب مقابل استغلال الأرض، وهذا ما يعرف بالنظام الإقطاعي العسكري[١].

أما ما يتعلق بالأسطول الأندلسي، فَيُعَدُّ عبد الرحمن الناصر الرائد الأول في الاهتمام الجدي بالقوة البحرية، إذ أنشأ أسطولاً أندلسياً قوياً لدرء الأخطار التي تتعرض لها البلاد من غارات النورمان أو **المجوس**[٢] حسب التسمية

العرب عليهم اسم الصقالبة، أو كلمة صقالبة اسم يطلق على أسرى الحرب في جميع البلاد الأوربية، وكان يُؤتى بهم أطفالاً ويُربونَ تربية إسلامية، وازداد تدخلهم في الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكانوا يُعرفون بالفتيان العامريين في عهد المنصور بن أبي عامر. وللمزيد من التفصيل انظر: احمد مختار العبادي: الصقالبة في اسبانيا، وزارة المعارف العمومية، مدريد، ١٣٧٣ه/ ١٩٥٣م، ص ٨-٩؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ٩١ – ٨٩٧ه / ٧١٠ – ١٤٩٢م، دار النفائس، ط٣، بيروت، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م، ص ٣٤٦؛ عمر مصطفى لطف: تاريخ الصقالبة في الأندلس دراسة تاريخية جديدة، دار أقلام، القاهرة، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٣م، ص ٥ – ١١.

(١) عصام محمد شبارو: الأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود ٩١ – ٨٩٧هـ / ٧١٠ – ١٤٩٢م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢ م، ص ١٨٦ – ١٨٧؛ احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، ط٢، بيروت، ١٣٨٩ه/ ١٩٦٩م، ص ٢٢. ازداد استخدام الصقالبة في بلاط عبد الرحمن الناصر الذي اعتمد عليهم كثيراً، إذ وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين فتى وستة آلاف وسبعمائة وخمسين امرأة. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤٠ – ٤١؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين، ص ٣٤٦.

(٢) ويُسَمَّوْنَ بالنورمان وهم شعوب آرية من سكان السويد والنرويج والدنمرك وعُرفوا في المصادر العربية بالأردمانيين وعُرفوا أيضاً بالفايكنج Vikings وظهر خطرهم منذ مطلع القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حيث هددوا دول غرب البحر المتوسط. وتسميهم

العربية، والغزو الفاطمي، ووصلت أعداد هذا الأسطول من المراكب إلى مائتي مركب أو نحوها، وقد استخدمت في مضيق جبل طارق لمنع وصول مساعدات الفاطميين إلى المتمرد عمر بن حفصون من ساحل إفريقيا الشمالية، وصد هجوم النورمان المجوس على شذونة وإشبيلية، وكذلك أسهم هذا الأسطول في الاستيلاء على المناطق المغربية المُطِلَّة على مضيق جبل طارق مثل سبتة وطنجة[١]، وكان الناصر قد أنشأ داراً لصناعة السفن في الجزيرة الخضراء لدعم أسطوله الحربي[٢].

هكذا يعد الأسطول الأندلسي في عهدي الخليفتين عبد الرحمن الناصر

بعض المصادر المجوس لأنهم كانوا يعبدون النار وهو دينهم الذي كانوا عليه قبل تنصّرهم. أما الدراسات الحديثة فلها رأي مختلف: فلكثرة استخدامهم للنار عند غزوهم لإشبيلية في الأندلس سُمُّوا بالمجوس، وكان السبب الاقتصادي هو الدافع الرئيس للهجوم على تلك الدول ووصل خطرهم إلى الأندلس في ذي الحجة عام ٢٢٩هـ/ ديسمبر: كانون الأول ٨٤٤م. انظر: ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن: المطرب من أشعار أهل المغرب: تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، دار العلم للجميع، دمشق، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ص ١٤٠؛ منيرة بنت عبد الرحمن الشرقي: علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م، ص ٤٥؛ سعد آل مصطفى: سفارات الأندلس إلى ممالك أوربا المسيحية الكاثوليكية ١٣٨ – ٤٢٢ه/ ٧٥٥- ١٠٣١م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٣ه/ ٢٠١٢م، ص ٧٦ .

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٣١٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٢٨٥؛ ارشيبالد. ر. لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: احمد محمد عيسى، مراجعة: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت، ص ٢٣٦.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص ٢٢٣؛ نهلة شهاب أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦ه/ ٢٠٠٩م، ص ٤١ .

وابنه الحكم المستنصر من أقوى الأساطيل البحرية، وكان بضخامته وعدد مراكبه الكثيرة يسيطر على مياه جنوب الأندلس وشرقه، وينافس الفاطميين في الجزء الغربي من البحر المتوسط، وكانت المرية قاعدة الأسطول الرئيسة إذ أنشأ فيها دار صناعة السفن والمستلزمات الحربية الأخرى(١).

٣- العلاقات الخارجية

بلغت الأندلس قمة مجدها وذروة تقدمها ورقيها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في الميادين كافة ومنها العلاقات الخارجية، إذ هادنهم ملوك الغرب وبعثوا إليهم سفراءهم لكسب ودهم مُحَمَّلين بالهدايا، والرغبة في مسالمتهم، وفي إشارة للخليفة عبد الرحمن الناصر((ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من رومه والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته))(٢). وكانت الدولة البيزنطية في مقدمة الدول التي سعت من أجل تطوير العلاقات مع الأندلس، ولعل العداء المشترك للدولة العباسية يقف وراء تلك العلاقات، وقد تبادل الطرفان تلك السفارات، إذ وفدت سفارتان من البيزنطيين إلى بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر مُحَمَّلةً بالهدايا تخطب ودَّه وترجو صداقته فاستقبلها خير استقبال

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٤٦؛ سامية مصطفى مسعد: العلاقات، ص ٣٣.

(٢) المقري: نفح الطيب،١ / ٣٥٤؛ عطا علي محمد رية: تاريخ الأندلس الإسلامي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ه/ ٧١١ – ١٤٩٢م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٢ه / ٢٠١١م، ص ٧٨.

وذلك في سنتي ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م و٣٣٨هـ/ ٩٤٩م على التوالي[١].

كذلك كانت هناك علاقات أندلسية مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة، عندما وفدت على بلاط عبد الرحمن الناصر سفارة من إمبراطور الألمان أوتو الكبير وذلك سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م لغرض الصداقة بين الطرفين، والطلب من الخليفة التوسط من أجل إيقاف غارات البحريين الأندلسيين على أملاك الإمبراطورية الرومانية في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة، وقد بعث الناصر سفارة جوابية على سفارة إمبراطور الألمان[٢]. كما وفدت على الخليفة رسل ملك الصقالبة المدعو بيتر أو بطرس فرحَّب بقدومهم، وبعث معهم ربيع الأسقف سفيراً إلى ملكهم، كما وفدت على بلاط الناصر رُسُلُ ملك فرنسا لويس الرابع تبغي الصداقة والمودة أيضاً[٣].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٣١٣، ٢١٥؛ ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ٨١؛ عصام محمد شبارو: الأندلس، ص ١٦٨ – ١٦٩.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ٢١٨؛ خليل ابراهيم السامرائي: تاريخ العرب، ص ١٧٦ – ١٧٧؛ عبد الرحمن علي الحجي: أندلسيات، دار الرشاد، بيروت، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م، ١ / ٤٩؛

Imamuddin S.M.: Muslim Spain ٧١١- ١٤٩٢ AD , Printed in the Netherlands, Leiden, ١٩٨١ , P. ١٣٠.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٤ / ١٨٣؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٥٦؛ سعد آل مصطفى: سفارات الأندلس، ص ١٠٠.

openkandil.com

كانت للخلافة الأموية في الأندلس علاقات صداقة مع الرستميين في بلاد المغرب على الرغم من الاختلاف المذهبي فيما بينهما[١]، واستطاع الأمويين في الأندلس تكوين محور سياسي مع الإمارة الرستمية، وإمارة بني مدرار، وإمارة برغواطة، وكان الهدف من هذا المحور هو الحيلولة دون توسع الأدارسة[٢]، أما العلاقات مع الفاطميين فقد اتسمت بالتنافس والتصارع بين الطرفين، وقد شكل المغرب الأقصى ساحة لذلك الصراع[٣]، وقد تلقت إمارة نكور دعماً مادياً وسياسياً في مواقف عديدة، فعندما انتصر الفاطميون على تلك الإمارة سنة ٣٠٥ه/ ٩١٧م وجد حُكَّامُها في الأندلس ملاذاً آمناً عندما رحَّب بهم عبد الرحمن الناصر وزاد في إكرامهم[٤].

أما الممالك الإسبانية الشمالية، فعلى الرغم من الصراعات الحربية بينها وبين الأندلس، فهي ممن سعى لأجل كسب وُدّ الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، على الرغم من دخول تلك الممالك ساحة الموادعة

(١) ارشيبالد. ر. لويس: القوى البحرية، ص ٢٥٥.

(٢) محمود إسماعيل: الأدارسة ١٧٢ – ٣٧٥ه حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١١ه/ ١٩٩١م، ص ١٣١.

(٣) حامد محمد عدنان: سهولة الانتشار بين المغرب والأندلس وأثرها على الحياة السياسية والعسكرية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (٩٢ – ٤٢٢ ه/ ٧١٠ – ١٠٣٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي في جامعة الخليل، فلسطين، ١٤٣٤ه/ ٢٠١٢م، ص ٨٧.

(٤) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص ٩٦؛ نهلة شهاب أحمد: دراسات، ص ٩٦.

عندما يظهر عجزها من القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في الأندلس، إذ وصلت سفارة ملك ليون اردونيو الرابع إلى بلاط الناصر تطلب عقد معاهدة سلام بين الطرفين وذلك في سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م فاستجيب لطلبهم، وفي السنة التالية طلب ملك ليون إضافة أمير قشتالة للمعاهدة، وتم له ذلك[١]. كذلك تم عقد معاهدة سلام بين بلاط الناصر وملكة نافار طوطة سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م عندما وصلت قرطبة برفقة ولدها غرسية ورجال دين النصرانية وآخرين[٢]، كما وفد رسل البابا يوحنا الثاني عشر لطلب السلم بين الإسلام والنصرانية فأجيبوا لما طلبوا[٣].

يتضح مما تقدم المكانة المرموقة التي وصلت إليها الأندلس في عصر الخلافة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وغدت قرطبة من الفخامة والرقي مناراً تهتدي به الدول الأوربية التي سعت من أجل كَسْب ودّها وصداقتها، وقد عبر عن ذلك المقري حين قال: ((إنَّ ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الفخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس، وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية...))[٤].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ١ / ٣٦٥؛ عصام محمد شبارو: الأندلس، ص ١٧١.

(٢) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٨٤؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٥٩.

(٣) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق والصفحة.

(٤) نفح الطيب، ١ / ٣٦٦.

- القضاء على الإقطاع

اختلف الفقهاء في مفهوم الإقطاع، وإن هذا الإختلاف في المفاهيم ربما يعود إلى تباين ظروف كل عصر والتطور التاريخي للمجتمعات. فالإقطاع يعني ((كل أرض لم يُحْيِها أحد. ولم يملكها مسلم ولا معاهد)) تمنح من قبل الإمام، من دون تحديد عام لضوابط هذا الإحياء[١]. وعرف الإقطاع أيضاً على أنه إذا أعطى الإمام رجلا ما من الرعية أرضاً مواتاً لغرض إحيائها[٢].

ونتيجة لتعرض الأندلس لغزوات متكررة من قبل النورمان المجوس[٣]، وتفوقهم في عمليات الغزو، وبيان الضعف الظاهر من الدولة في التصدي لذلك الغزو، جعل الأندلس لقمة سائغة أمام ذلك الغزو وتحت رحمة ضرباته، وهذا من بين ما يعني عجز السلطة المركزية من الناحية العملية عن درء الخطر الخارجي، الأمر الذي جعل الزعامات المحلية مضطرة للدفاع عن نفسها، كما أن زيادة هجمات نصارى الشمال زاد الطين بِلَّة مما جعل الإمارة الأموية في الأندلس تلجأ إلى العسكر المأجور لدرء الأخطار الخارجية[٤]، الأمر الذي

---

(١) ابن سلام، أبي عبيد القاسم: كتاب الأموال، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٩ه / ١٩٨٩م، ص ٣٧١.

(٢) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي: المبسوط في فقه الإمامية، صححه: محمد باقر البهبودل، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، د. ت، ٣ / ٢٧٣ .

(٣) كانت أولى تلك الغزوات لمدينة إشبيلية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٣ه/ ٨٤٥ م، ثم توالت تلك الغزوات في فترات مختلفة. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٨٨.

(٤) إن الاعتماد على العسكر كان أيام موسى بن نصير عندما ترك مع ابنه عبد العزيز من العساكر

جعلهم يصبحون قوة سياسية مؤثرة استطاعت التأثير على النظام السياسي، كما أن ضعف السلطة المركزية غالبا ما يصاحب المد الإقطاعي، وقد عبَّر ابن خلدون عن ذلك من خلال الربط بين ضعف الدولة وتطاول العسكر وسيادة الإقطاع حين قال: ((... وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين. ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاهاً وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً))[1].

عندما تسلم عبد الرحمن الناصر مقاليد الأمور في الأندلس وضع يده على الداء، وهو مسؤولية قادة العسكر عما وصلت إليه الأوضاع في الأندلس من تجزئة إقطاعية، فكان لابد من دواء لهذا الداء، وهو القضاء على هؤلاء القادة ومن ساندهم ودكّ معاقلهم والسيطرة عليها وإخضاعهم لسلطة الدولة المركزية، وفي هذا السياق وما قام به الناصر لأجل ذلك قال مؤلِّف مجهول: ((فافتتح الأندلس مدينة، وقتل حماتها، واستذل رجالها، وهدم معاقلها، وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها، وأذلهم بعسف العمال غاية

لحماية الثغور وجهاد العدو. انظر: المراكشي، عبد الواحد بن علي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٤٢٦ه / ٢٠٠٥م، ص١١ وهو إشارة لضعف السلطة المركزية الذي يرافقه مد إقطاعي.

(١) المقدمة، ص ٣١٩.

الاذلال، حتى دانت له البلاد، وانقاد له أهل العناد...))[١].

فراح يضرب بيد من حديد قادة العسكر عن طريق معارك مضنية لأجل إرجاعهم إلى جادة الصواب والدخول في طاعة الدولة، فكان أول قادة العسكر المستقلين الذين أظهروا الطاعة الفتح بن موسى بن ذي النون، كذلك استطاع الناصر إخضاع جند دمشق لحظيرة الدولة بعد غزوة المنتلون[٢].كما استطاع القضاء على إمارة بني الحجاج الإقطاعية[٣]، وقضى أيضاً على إمارة عثمان بن نصر، أما طليطلة فقد استأمن أحد أمرائها ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث من الناصر فأمنه فدخلت في طاعة الناصر أيضاً[٤].واستمرت عملياته العسكرية التي قاد القسم الأكبر منها بنفسه من أجل إخضاع العسكر وقادتهم وتم له ما أراد، وقد ذكرت تلك العمليات العديد من المصادر[٥].

كما أن الناصر قام قبل ذلك بإجراءات كان الغرض منها الحد من استمرار تضخم الإقطاع، فأنشأ لذلك ديواناً مختصاً بتنظيم الملكيات أطلق عليه خطة

(١) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠١ه/ ١٩٨١ م، ص ١٣٥.

(٢) ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة ٢٥٠ – ٣١٦ه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٦ه/ ١٩٨٥م، ص ٣١٧.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ٤ / ١٧٩ – ١٨١

(٥) المصدر نفسه، ٢ / ١٥٩؛ ابن خلدون: تاريخ، ٤ / ١٧٩ – ١٨١ .

الضياع[١]، وجعل عليه موظفاً كثيراً ما تعرض للعزل[٢]. ولم ينته الأمر عند هذا الحد إذ سرعان ما قام الناصر بمصادرة إقطاعات قادة العسكر وإرجاعها إلى ملكية الدولة، وكانت تلك الأراضي الزراعية التي حصل عليها قادة العسكر قد استحوذوا عليها بحد السيف في فترات سابقة[٣].

ولاشك أن ما قام به عبد الرحمن الناصر من أعمال وإجراءات للقضاء على الإقطاع كانت كفيلة بأن تؤدي إلى ازدهار الحياة المدنية في عموم الأندلس، وهذا الازدهار ما هو إلا مؤشر دال على تنامي المد البرجوازي في المجتمع الأندلسي أو صحوة برجوازية أخيرة من أجل القضاء على التجزئة الإقطاعية واستعادة وحدة الأندلس[٤]. ولكن مهما بلغ حجم الإجراءات والأعمال التي قام بها الناصر وكانت ترمي إلى القضاء على الإقطاع، إلا أنها لم تقض عليه نهائياً، وهذا يفسر لنا ظهور الإقطاع مرة أخرى وفي حقب لاحقة.

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٩٩.

(٢) كان الناصر كثيرا ما يقوم بتغيير وزرائه انظر: ابن الأبّار: إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشتر، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٨٠ه/١٩٦١م، ص١٩٠ كما عزل غالب بن محمد بن عبد الرؤوف وحلّ محله محمد بن عبيد الله بن مضر. كما أشرك شخصين بوظيفة واحدة عندما ولى الخزانة محمد ابن عبيدة بن مبشر وأشرك معه محمد بن عبد الله بن أبي عبدة، ويبدو أن الهدف من ذلك حتى لا يستأثر أحدهما بمزايا الوظيفة المكلف بها. انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٥٨، ١٩٩.

(٣) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٤) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، سينا للنشر، ط٤، القاهرة، ١٤٢١ه/٢٠٠٠م، ٢ / ١٤٩.

ب – اقتصادياً:

١ – قوى الإنتاج (زراعة – صناعة – تجارة)

تعد الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر من أغنى الدول، إذ وصلت إلى التطور والغنى الذي لم تصله في عصورها السابقة. وكما هو معروف فإنها بلد زراعي في المرتبة الأولى، وبدأت الزراعة بالازدهار والتطور بسبب اهتمام الدولة بها إذ حسنت أحوال الزُرَّاع عندما وزّعت الأراضي على صغار المزارعين الذين كانوا تحت رحمة أمراء الإقطاع الذين سلبوا حقوقهم، ورفعت بعض الضرائب عن كاهلهم، وكذلك هَيَّأت لهم أسباباً زادت من استغلالهم للأرض عن طريق إنشاء مشروعات إصلاح الأرض، والسقي بطرق مستحدثة، فتم الاهتمام بنظام الري وأوجدت الدولة ما يعرف بوكالة السقاية[١]، فضلاً عن تشييد السدود على وديان الأنهار لخزن المياه والاستفادة منها وقت الحاجة، وانعكس ذلك كله على زيادة الإنتاج، فتنوعت المحاصيل الزراعية من أشجار فواكه ومزروعات أخرى مثل: الكتان، والزيتون، والأرز، وقصب السكر، فضلاً عن الغابات الكثيفة التي تعد مصدراً مهما للثروة ومادة أولية للصناعات، كما تم إنشاء مزارع لتربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعي، وتربية الماشية ولم يقف الأمر عند ذلك من حيث الاهتمام بالزراعة بل تم وضع تقويم لزراعة المحاصيل لكل موسم[٢]، وسمي هذا

(١) المرجع نفسه، ٢ / ١٢٦.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٦٨٩؛ طارق سويدان: الأندلس التاريخ المصور، مراجعة وتدقيق: راتب المصري، شركة الإبداع

التقويم بتقويم قرطبة في عهد الخليفة الحكم المستنصر وذلك سنة ٣٥١هـ/ ٩٦١م، وقد حمل معلومات هامة عن أوجه النشاط الزراعي في كل شهر، وينسب إلى العارب بن سعد والراهب المستعرب الذمي ربيع بن زيد[١].

أما الصناعة فقد أخذت حيزاً من اهتمامات عبد الرحمن الناصر، إذ نشطت صناعة التعدين وحركة استغلال الثروات الطبيعية فتم استخراج المعادن كالذهب والفضة والزئبق والنحاس والحديد والرصاص والملح، وكانت كل منطقة في الأندلس تشتهر بنوع أو أكثر من تلك المعادن، فالفضة والنحاس تستخرج من قرطبة ولوشة وتدمير، والزئبق يستخرج من جبال البرانس، والذهب يجمع من نهر بمدينة لاردة، وكانت تلك المعادن تستخدم في عدد من الصناعات التي تحتاجها الدولة كصناعة الأسلحة من سيوف ودروع ورماح، كما تم تطوير صناعة الجلود، ووجدت مراكز خاصة لصناعة السفن، والزيوت والأدوية، وقد ظهر عدد من المدن الأندلسية اشتهرت بنوع معيَّن من الصناعة مثل مدينة المرية التي اشتهرت **بصناعة الحرير[٢]، وسرقسطة**[٣] التي اشتهرت

الفكري، ط٥، الكويت، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص ٢٠٠؛ ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٣١٩ – ٣٢٠.

(١) خوسى مارية بيكروسا: علم الفلاحة عند المؤلِّفين العرب بالأندلس، تعريب: عبد اللطيف الخطيب، تطوان، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص ١٤.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١ / ١٦٣.

(٣) قاعدة من قواعد الأندلس وتقع في إقليم ارنيط، لها سور حصين، وتقع على ضفة نهر، وتسمى المدينة البيضاء لكثرة جصها، واسمها مشتق من اسم القيصر الذي بناها، وهي أطيب البلدان بقعة وأكثرها ثمراً، وبينها وبين وشقة خمسون ميلاً. انظر: الإدريسي: نزهة

بصناعة الملابس[١] المعدة للتصدير، والمجوهرات المرصعة والجلود كانت من قرطبة والأسلحة من مدينة طليطلة[٢]، وهذا بدوره يعكس حالة تحول الصناعة من صناعة استهلاكية إلى صناعة جاهزة للتصدير إلى دول خارج الأندلس بعد أن توطدت العلاقات معها مثل بيزنطة وإيطاليا، وقد ساعدت على ذلك حالة الانفتاح التي عاشتها الأندلس في عهد الخليفة الناصر، كما اتسعت في عهده دار الطراز والخلع إذ أصبحت تنتج ما يحتاج إليه من الخلع والكسي، وكان المسؤول عن هذه الدار في عهد الناصر الفتى خلف الكبير[٣]، وفي عهد الخليفة الحكم المستنصر تولاها الفتى فائق النظامي[٤]، وفي عهد الناصر أيضاً ظهرت الأسواق الخاصة لبيع البضائع المصنعة كسوق النحاسين وسوق متخصصة لبيع الزهور[٥].

يرى ابن خلدون أن رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ

المشتاق، ٢ / ٥٣٨، ٧٣٣؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٩٦ – ٩٩ .

(١) ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٣٢٠.

(٢) ليفي بروفنسال: حضارة العرب، ص ٥٩ – ٦٠.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٣٩١ه/ ١٩٧١م، ١/ ٢١٦.

(٤) المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٥ه/ ١٩٦٥م، ص ١١٧.

(٥) المقري: نفح الطيب، ١ / ١٤٣؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٦٩٠؛ طارق سويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص ٢٠٠؛ إبراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٣٢٠.

الحضارة، وطول أمدها، واتخذ من الأندلس أنموذجا حين قال: ((وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد. فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة واحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد أمصارها كالمباني، والطبخ، واصناف الغناء واللهو من الآلات والاوتار والرقص، وتنضيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والاوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف... وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها. وتجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار. وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة. وما ذاك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية...))[1].

أما التجارة فقد نشطت نشاطاً كبيراً نتيجة للازدهار الذي حظيت به الزراعة والصناعة بسبب التقدم الحضاري الذي ظهر في الأندلس في القرن الرابع الهجري، وتعد التجارة ركيزة مهمة للاقتصاد في الأندلس، وكانت المرية ومالقة موانئ مهمة من خلال التبادل التجاري الذي شهدته مع الدول الأخرى، وكانت الدولة تقوم بجباية الرسوم التجارية المقررة مثل ما يجبى من المراكب الداخلة والخارجة من الأندلس، ولم يقف الأمر عن هذا الحد. فقد اهتم الخلفاء الأمويون بتأمين طرق التجارة داخل الأندلس، كما حرصوا على توفير جميع سبل الراحة للتجار من خلال توفير الفنادق والحمامات لهم، فضلاً

(١) المقدمة، ص ٥٠٠.

عن إنشاء شبكة طرق تجارية بلغ عددها خمسة تنطلق من قرطبة[١]. وقد ازدهرت التجارة بهذا الشكل الملحوظ نتيجة لاستتباب الأمن، وإزالة الحواجز السياسية التي صنعتها الحروب الإقطاعية، وانحسار الخطر النصراني فضلاً عن تحكم الدولة بالشأن الاقتصادي والسيطرة عليه[٢]. كما أن سياسة الانفتاح التي انتهجتها الدولة والتعاون الاقتصادي مع القوى الإسلامية والسماح للتجار غير المسلمين بممارسة نشاطهم، كل ذلك كان له كبير الأثر في ازدهار التجارة[٣].

أما أهم المواد والبضائع المصدرة من الأندلس فهي **القطن وزيت الزيتون**[٤]، والفاكهة، والفخار، **والورق والبز**[٥]، والزئبق الذي توجد مناجمه

(١) ابن حوقل، أبي القاسم: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤١٣ه/ ١٩٩٢م، ص ١٠٤ - ١١١؛ سامية مصطفى مسعد: العلاقات، ص ١٥٠، ١٦٨. يذكر أن هناك طريقاً سادساً من الطرق التجارية في الأندلس. انظر: حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة، ١٤٠٤ه / ١٩٨٦م، ص ٢٨٨ - ٢٨٩. في حين هناك مَنْ حدد الطرق التجارية بأربعة عشر طريقاً. انظر: ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٣٢٠.

(٢) إبراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٧ه / ١٨٨٩م، ص ١٥٤؛ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ١ / ٧٥ الهامش رقم ٣.

(٤) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ٢١.

(٥) المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ط٢، ليدن، ١٣٢٤ه/ ١٩٠٦م، ص ٢٣٩.

حول قرطبة[١]، وفي جبل البرانس[٢]. أما أهم السلع والبضائع التي تستوردها الأندلس فهي القمح الذي يستورد من مدينتي وهران وطبرق، والأغنام والماشية التي تستورد من المغرب، أما مدينة أودغست في المغرب الأقصى فتصدر إلى الأندلس مادة **الصمغ السماوي الذي يستخدم في تصميغ الديباج**[٣]، فضلاً عن الرخام الوردي والأخضر الذي يرد من تونس[٤].

أما تجارة الرقيق الأبيض(الصقالبة) فقد نشطت نشاطاً ملحوظاً، إذ تجلى ذلك النشاط في موانئ الأندلس التي كانت تصدر الرقيق إلى موانئ شرق المتوسط ومناطق أخرى، وقد ذكر ذلك ابن حوقل حين قال: ((جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس))[٥]. وهكذا فإن الرخاء عَمَّ الأندلس، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، ورخصت أسعار الغلال والفواكه، وعاش الناس في رَغَدِ العيش، ونشطت العديد من مدن الأندلس بالصناعات المختلفة، فضلاً عن زيادة دخل الدولة خاصة من

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٠٩؛ القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠ه/ ١٩٦٠م، ص ٥٠٣.

(٢) مؤلِّف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق: لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية المعهد ميغل اسين، مدريد، ١٤٠١ه/ ١٩٨٣م، ص ١٥.

(٣) البكري: المغرب، ص ١٥٨ .

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٩ – ١١٠؛ سامية مصطفى مسعد: العلاقات، ص ١٥٠، ١٦٨ – ١٧٣. وقد استخدم هذا الرخام المستورد من تونس في بناء مدينة الزهراء. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٦.

رسوم الصادرات والواردات[١].

٢- النظام المالي

بلغت الموارد المالية للأندلس أرقاماً كبيرةً وصلت إلى ملايين الدنانير، فالجباية من الكور والقرى بلغت ما يعادل خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، ومن المستخلص والأسواق سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار، وكانت أموال الدولة مقسمة إلى ثلاثة أثلاث ثلث للجيش والثاني للبناء والثلث الثالث يدخر للنوائب التي تحل بالبلاد[٢]، أما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان لكثرتها[٣]. وقد وصف ابن حوقل ما يرد للدولة من موارد حين قال: ((مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وامواله))[٤]. وكانت تلك الموارد تتمثل في جبايات الخراج والأعشار والأموال الوفيرة مما يفرض على المراكب الداخلة إلى موانئ الأندلس والخارجة منها، فضلاً عن جباية رسوم بيوع الأسواق[٥]. كما أن النصارى أذعنوا لدولة الإسلام في الأندلس ويؤدون الجزية إلى الخليفة الناصر[٦].

---

(١) رينهرت دوزي: المسلمون في الأندلس، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٥ه / ١٩٩٤م، ٢ / ٥٦.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ٢١٣؛ المقري: نفح الطيب، ١ / ٣٧٩.

(٣) المقري: المصدر السابق، ١ / ٣٧٩.

(٤) صورة الأرض، ص ١٠٤.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٤.

(٦) الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: كتاب الجعرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص ٨٨.

يبدو مما تقدم أن كثرة هذه الموارد والجبايات ناتج عن تحقيق المركزية السياسية للدولة التي كانت متعطشة لها الأندلس منذ سنين.

نتيجة لازدهار الحياة الاقتصادية وزيادة حجم الموارد، وبعد أن تعقدت العمليات المصرفية، أسست بعض الشركات مثل شركات الضمان وشركة المفاوضة، كما أن المؤسسات المالية أسهمت في حركة النشاط التجاري وزيادة نطاق معاملات الائتمان ومنح قروض للتجار(١)، كما أن المعاملات التجارية الضخمة تحتاج إلى طريقة دفع خفيفة الحمل، وأمينة، وبعيدة عن السراق، لذلك ظهر التعامل بالسفاتج والصكوك، ويذكر أن أحد العلماء عندما سافر إلى الأندلس كان معه سفتجة ونقد مقداره خمسة آلاف درهم(٢).

وكانت العملة مما اهتم به الخليفة عبد الرحمن الناصر، حتى تواكب النمو والازدهار الاقتصادي الذي عم الأندلس في عهده، إذ أمر بعمل دار للسكّة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وضربت يوم الثلاثاء السابع عشر من رمضان سنة ٣١٦هـ/ سبتمبر: أيلول ٩٢٨م، وكانت تلك الدنانير والدراهم تضرب من خالص الذهب والفضة، وبذل جهده في الاحتراس من المدلسين فصارت عملته عيارا محضا، وكان لذلك الإجراء كبير الأثر في استقرار التعامل وتثبيت العملة، واستمرت هذه الدار بسك العملة حتى بنى الخليفة

(١) ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٣٢٥.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي، ط٤، بيروت، ١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م، ٢/ ٣٧٩.

الناصر مدينة الزهراء فانتقلت دار الضرب إليها[١].

تم العثور على قطع من العملة التي سَكَّها الخليفة الناصر وتحمل اسمه في الزهراء تحمل التواريخ ٣٣٩ – ٣٤٢ – ٣٤٨هـ/ ٩٥٠- ٩٥٣- ٩٥٩ م على التوالي، كما عثر على قطع أخرى من العملة تحمل اسم الخليفة الحكم المستنصر[٢]. كما استحدث الناصر ديواناً خاصاً بحقوق الأمويين المالية بعد دخول عدد من الأسر الأموية إلى الأندلس، وكانت تصرف من هذا الديوان رواتب وعطاءات للأمويين، وسمي هذا الديوان بديوان قريش، ومن الذين كانت تصرف لهم رواتب من هذا الديوان الحكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ[٣].

٣- مظاهر الرخاء الاقتصادي

بعد السياسات الناجحة التي اتبعها الخليفة الناصر في الأندلس ومنها السياسة التي أدت إلى استتباب الأمن، والقضاء على الإقطاع وزيادة المد البرجوازي، الأمر الذي حَوَّل الكثير من المدن من مدن دفاعية هَمُّها الأول حماية نفسها من الأخطار الخارجية إلى مدن ذلت نشاط الاقتصادي واضح إذ

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢١٥؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٤٧؛ خليل ابراهيم السامرائي: تاريخ العرب، ١٨٠ – ١٨١ .

(٢) أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي (تاريخ وحضارة)، الإسكندرية، د. ت، ص ٢٣١.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ١/ ١٤٣؛ خزعل ياسين مصطفى: بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة ١٣٨ – ٤٢٢هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، الموصل، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٧٥.

زاد تلك المدن ازدهاراً لاسيما وقد ازدادت أعداد المدن من أربعين إلى ثمانين مدينة، بعد أن تحولت من مدن متقوقعة على نفسها وخاملة إلى مدن تنبض بالحياة وتزدهر بالنشاط التجاري(١)، وقد وصفت تلك المدن في مدة حكم بني أمية بأنها مدن عظام(٢). بديهي أن تسهم الزيادة في أعداد المدن إلى زيادة في أعداد السكان ونموهم، فهذه مدينة اشبيلية توصف بأن خلقها كثر(٣)، ولا يختلف الحال على مالقة المدينة العامرة والآهلة وكثيرة الديار(٤)، كما وصف الاصطخري مدينة طليطلة بأنها عامرة منيعة مسكونة(٥)، ولكن مهما يكن من أمر فليس هناك أدل على النمو السكاني في الأندلس من الزيادة السكانية في قرطبة التي وصلت إلى نصف مليون نسمة(٦).

أما ما تعلق بالزراعة والصناعة والتجارة وكيف دلت على رخاء الدولة فقد نشطت وازدهرت مما أضفى حلة من الرخاء الاقتصادي تزينت بها مدن الأندلس التي أصبحت ((مشهورة بالغلات والتجارات والكروم والعمارات والاسواق والبيوع والحمامات والخانات...))(٧).

---

(١) ابراهيم القادري بوتشيش: أثر الإقطاع، ص ٢٢١.

(٢) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٣٥.

(٣) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٩.

(٤) الحميري: الروض المعطار، ص ٥١٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٦.

(٦) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٤٣٦؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص ٢٩٥؛ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ١٤٨/٢.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١١١.

بلغت الأندلس وعاصمتها قرطبة مكانة عالية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وامتلكت ميزانية كبيرة وثروة ضخمة بلغت ما يقرب من ستة ملايين دينار[١]، مما انعكس ذلك على الحياة وانتشار الترف والبذخ ومظاهر الأبهة فيها، ومن أمثلة ذلك البذخ ما ذكره ابن الخطيب من أن قوت الحيتان في بحيرات قصور الناصر فقط بلغ في كل يوم اثني عشر ألف خبزة[٢]، كما أنشأ الناصر حديقة للحيوان في مدينة الزهراء[٣]،وهكذا فإن الموارد الضخمة أدت إلى رخاء وبذخ في مختلف مجالات الحياة، وأضحى التوسع في بناء الدور في قرطبة للحاشية وأهل الخدمة والوزراء مظهراً آخر من مظاهر الرخاء الاقتصادي في عهد الخليفة الناصر وابنه المستنصر، إذ لولا تلك الموارد الكبيرة لما حَلَّ الرخاء وزاد الترف، ((ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية – رحمهم الله تعالى – إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار؛ ومساجدها ثلاثة آلاف؛ وعدة الدور التي بقصر الزهراء أربعمائة دار؛ وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته))[٤]. وبذلك فإن الرخاء الإقتصادي أضحى سمة ميزت عصر الخلافة الأموية في الأندلس.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٣١ – ٢٣٢؛ ارشيبالد. ر. لويس وجورج رينتر: دراسات إسلامية، ترجمة: أنيس فريحه وآخرون، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م،ص ٧٠.

(٢) أعمال الأعلام، ص ٣٨؛ ستانلي لين بول: قصة العرب، ص ٩٨.

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ٤/ ١٨٥.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٣٢.

ج – اجتماعياً:

١- القضاء على النزعات العنصرية وتحقيق التجانس الاجتماعي

ذكر فيما سبق الظروف التي أحاطت بتسلم الناصر مقاليد الحكم في الأندلس حيث وجدها تغلي بالاضطرابات والتمردات والنزعات العنصرية التي راحت تحاول الاستقلال بل استقلت عن السلطة المركزية، وبذلك كان النسيج الاجتماعي هناك غير متجانس، وكان لابد للناصر من مواجهة هذا التحدي الخطير من خلال القضاء على تلك النزعات، وتحقيق التجانس الاجتماعي فكانت أولى حملاته العسكرية التي توجهت للقضاء على تمرد للبربر في قلعة رباح قاده أحد زعمائهم وهو الفتح بن موسى بن ذي النون يسانده حليف له يدعى أرذبلش. وبعد معارك ضارية استطاع قائد حملة الناصر الوزير عباس ابن عبد العزيز القرشي القضاء على هذا التمرد وقتل أرذبلش، وكانت تلك الحملة في ربيع الثاني ٣٠٠هـ/ ابريل: نيسان ٩١٢م، وعلى الرغم من أن الفتح بن موسى بن ذي النون سبق وأن أشير إليه على أنه من قادة الإقطاع، إلا أنه هنا نحا منحى آخر في توجهه وراح يتكتل ويتعنصر مع أبناء جلدته من البربر في مناطق كركي وجبل البرانس، وراح يضم إليه من خرج على ملة الإسلام مثل أرذبلش الذي وصفه ابن عذارى بالمارق[1]. إلا أن أخطر النزعات العنصرية تمثلت في تمرد عمر بن حفصون الذي مثل المولَّدين في الأندلس، والذي استمر طوال ست وثلاثين سنة، من أواخر عهد الأمير محمد

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٥٩؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٥.

ابن عبد الرحمن الثاني ٢٦٧هـ/ ٨٨٠ م[١]، حتى عهد الأمير عبد الرحمن الثالث، الذي قضى على ذلك التمرد سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م عندما جنح عمر بن حفصون للسلم والطاعة[٢].

وإن جنوح هذا المرتد للسلم لم يكن بدافع الرغبة الحقيقية إلى السلم والطاعة للإمارة الأموية، وإنما نتيجة لعجزه عن مواصلة تمرده، على الرغم من احتفاظه بعدد لابأس به من المواقع، بعدما استطاع الناصر قطع المساعدات التي كانت تصل إليه من الدولة الفاطمية عن طريق مضيق جبل طارق والعدوة المغربية، ومن النصارى في الشمال، فضلاً عن حرق العديد من المراكب التي كانت تمده بالإمدادات القادمة من بلاد المغرب العربي[٣]. ولكن مما يثير الاستغراب تلك الهالة الكبيرة التي أحاط بها البعض، ومنهم دوزي شخصية عمر بن حفصون، فضلاً عن التناقض في الوصف إذ وصفه بأنه ((البطل الذي روع شعبا طال استعباده)) في حين وصفه الكاتب نفسه في موضع آخر على أنه كان ((أجوفَ متعاضماً عربيداً ميالاً للشجار))، ووصفه

(١) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢/ ١٠٤.

(٢) محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٨٠. يبدو أن الأسباب وراء استمرار تمرد بن حفصون هذه السنين الطوال يعود إلى المساندة الكبيرة التي حظي بها من المولَّدين في الأندلس ونصارى الشمال الذين استهوتهم نزعته العنصرية فضلاً عن المساعدات الخارجية الأخرى، كما أن المناطق الحصينة التي اتخذها كمعاقل لأتباعه، واستغلاله لتسامح الأمويين مع الخارجين عليهم أسباب مضافة لما تقدم ذكره من أسباب.

(٣) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ١٦٤ – ١٦٥.

أيضاً على أنه كان قاتلاً لأتفه الأسباب[١]، في حين لا يتعدى وصفه من كونه مرتدا قاتلا التف حوله كل ذي نزعة عنصرية تهدف إلى الحصول على السلطة والمغانم والرغبة في الارتداد عن الإسلام وطاعة أولي الأمر، أو كما اختصر ذلك ابن خلدون حين وصف الذين انضموا إليه بأنهم ((ممن في قلبه مرض في الطاعة))[٢]، وقد استغل التسامح الذي تعامل به الأمويون مع الخارجين عن طاعتهم، ذلك التسامح الذي ألقى بظلاله على السياسة الأموية في الأندلس.

ومن بين النزعات العنصرية الأخرى، نزعة المولَّدين والعرب معا متمثلة في تمرد بني حجاج أصحاب الأصول العربية والنسب إلى المولَّدين من الأم، الذين أقاموا إمارة مستقلة في مدينة اشبيلية منذ عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ – ٩١٢ م) والذين دأبوا على عدم الطاعة للسلطة الإسلامية في الأندلس على الرغم من معاملتهم بالحسنى من قبل سلطة قرطبة، إلا أن الناصر استطاع تجهيز حملة عسكرية ضدهم والاستيلاء على اشبيلية وإخضاعها للسلطة المركزية في قرطبة سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م[٣]. كذلك ظهرت تمردات أخرى تزعمها المولَّدون في مدن مختلفة في الأندلس، فهذا لب بن الطربيشة أحد زعماء المولَّدين يظهر الخروج على الناصر في مدينة طليطلة، إلا أن فعله هذا ذهب أدراج الرياح بعد أن استطاع الناصر إخضاع المدينة لسلطته، ومدينة بطليوس لم تكن بمعزل عن تمردات المولَّدين التي تعد معقلا

(١) رينهرت دوزي: المسلمون في الأندلس، ١ / ١٤٦، ١٤١.

(٢) تاريخ، ٤/١٧٣.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ١٦٢ – ١٦٣؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٧٦ – ٣٧٧.

مهما لهم، وكان بنو مروان الجليقي يسيطرون عليها ويتحالفون مع النصارى ضد سلطة قرطبة، إلا أن الناصر جَهَّز لها قوة عسكرية استطاعت إخضاعها إلى السلطة المركزية في قرطبة[١].

وفي الغالب أن تلك التمردات ذات النزعة العنصرية التي خرجت على السلطة المركزية في قرطبة كان لها اتصالات مع خارج الأندلس أو مع النصارى في الشمال. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان الفاطميون يدعمون عمر بن حفصون، وكان النصارى في شمال الأندلس يدعمون بني مروان الجليقي في بطليوس، وهذا الأمر يوصل إلى قناعة مفادها أن تلك النزعات العنصرية والتمردات ضد سلطة قرطبة ما كانت لتتم لولا الدعم الخارجي، وخير دليل على ذلك عندما استطاع الناصر قطع الإمدادات عن عمر بن حفصون التي كانت ترد إليه من الفاطميين والنصارى، ما جعل بن حفصون يجنح إلى السلام ويضعف خطر خروجه على السلطة تدريجيا حتى تلاشى، وان كان قد استمر ذلك الخطر بعد وفاة عمر بن حفصون من قبل أبنائه، إلا أنه لم يكن بتلك القوة التي كان عليها أيام الأب.

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث / ص ٣٨٩.

openkanal.com

٢- ازدهار العمران الحضري

تعد مدينة قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، إذ بلغت أزهى عصورها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي حَوَّلها إلى حاضرة سنة ٣١٦ه/ ٩٢٩م، ثم في عهد ابنه الخليفة الحكم المستنصر، وقد تم التطرق إلى ذلك من قبل، فهي ((قاعدة بلاد الأندلس ودار الخلافة الإسلامية وهي مدينة عظيمة...))[١]، وفي وصف موجز بليغ لابن الوردي في وصف عمران قرطبة قال: ((ومحاسن هذه المدينة أعظم من أن يحيط بها وصف))[٢]. ونتيجة لازدهار قرطبة في الميادين كافة سُمِّيَت جوهرة العالم[٣]. وقد ازدهرت قرطبة بمنشآتها العمرانية كافة، ومنها **المنيات**[٤]، إذ أنشأ الناصر منها قصراً كبيراً عرف بدار الروضة[٥]، ودار الرخام[٦]. ومن أعمال الخليفة الحكم المستنصر العمرانية إصلاح قنطرة قرطبة التي تعد أم قرطبة المرضعة في إشارة لأهميتها الكبيرة حسب وصف ابن حيان حين قال:((ودخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة والنظر في قنطرة قرطبة التي هي أم قرطبة المرضعة ومفضي سبلها

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب، ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٣) عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ه/ ٧١١- ١٤٩٢م، دار القلم، ط٢، بيروت، ١٤٠٢ه/ ١٩٨١م، ص ٣١٤.

(٤) مفردها منية وهي المسكن الريفي المحاط بحديقة ومزارع. انظر: اقبال حسن الراوي: منيات الأندلس، مجلة التراث العلمي العربي، بغداد – العدد ٤ – ٢٠١١ – ص ٤.

(٥) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: الحجي، ص ٢٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

المتشعبة وجماع معايشها المختلفة وقلادة جيدها المزدهية وعليا مبانيها المعجزة قد ازداد توكدا وتضاعف توقدا لاقتراب فصل الشتاء الذي قد أطل، واهتبال الخليفة بها الذي لا يمل... وجمعت الايدي عليه، بعد ازاحة علة القنطرة، على جبر الخرم الذي بثق بسد القنطرة...))[١].

أما مدينة الزهراء فهي تأنيث لكلمة الأزهر وهي مدينة صغيرة قرب قرطبة[٢] تبعد عنها مسافة خمسة أميال[٣]، فقد باشر الخليفة عبد الرحمن الناصر بناءَها سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٧م، وانتهى بناؤها سنة ٣٦٥ه/ ٩٧٧م في عهد ابنه الخليفة الحكم المستنصر[٤]، وأوكل مهمة الإشراف على البناء إلى ابنه وولي عهده الحكم المستنصر، وجلب لها اثني عشر ألف صانع من النصارى يعملون فيها تلبية لشروط فرضها عليهم عند غزوه لهم، وجاءت تسمية هذه المدينة ربما من القصور الزاهرة التي بناها الخليفة الناصر، أو ربما بسبب تفتح أشجارها زمن الأزهار، أو لعل السبب يعود إلى اسم جارية أحبها الخليفة عبد

(١) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٢) ابن عبد الحق، صفي الدين عبد المؤمن البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: محمد البيجاوي، بيروت، ١٣٨٤ه/ ١٩٥٥م، ٢/ ٦٧٧.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ٢ / ٥٧٩.

(٤) ابن غالب، محمد بن أيوب: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي عبد البديع، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٧٦ه / ١٩٥٦م، ص ٣١؛ عبد الرحمن علي الحجي: المرجع السابق، ص ٣٠٤؛ ستانلي لين بول: قصة العرب، ص ٩٧. يرى ابن الكردبوس أن بناء الزهراء اكتمل في خمس وعشرين سنة. انظر: ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٠ه/ ٢٠٠٩م، ١ / ٣٨٢.

الرحمن الناصر واسمها الزهراء التي طلبت منه أن يبني لها قصرا ويسميه باسمها[١].

لكن وقائع الأحداث تنفي أن يكون للخليفة عبد الرحمن الناصر شغف مثل هذا بالنساء وأن يسمى المدينة تلبية لرغبة جارية، والأرجح هو حب الخليفة للبناء لاسيما وأنه كان ((كَلِفاً بعمارة الأرض وإقامة معالمها وانباط مياهها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه وعز سلطانه وعلو همته...))[٢] فأراد تخليد اسمه ودولته وبيان عظمتها وجعلها مركزاً تجارياً مهماً لاسيما وأن القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عد العصر الذهبي لازدهار التجارة الإسلامية وظهور المراكز التجارية الإسلامية مثل: بغداد والإسكندرية اللتين تقرران الأسعار لدول العالم ولاسيما ما تعلق بالسلع الكمالية[٣]، لذلك أراد منافسة تلك المراكز التجارية بجعل الزهراء

(١) المقري: نفح الطيب، ٢ / ٦٥؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: أحمد كمال، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠١ه / ١٩٨٠م، ٢٣ / ٣٩٨؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الثالث/ ص ٤٣٦؛ سلمى الخضراء الجيوسي (المحرر): الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، ١٤٢٠ه / ١٩٩٩ م، ١ / ١٩٩. وإن الموضع الذي بني به القصر كان يسمى في قديم الزمان بقوقريط. انظر: العذرى، أحمد بن عمر بن انس ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الاهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٣٨٥ه/ ١٩٦٥م، ص ١٢٣.

(٢) ابن غالب: فرحة الأنفس، ص ٣٤.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ٢ / ٣٧١؛ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ١٤٦/٢.

مركز استقطاب تجارياً عندما جعل فيها ((الأسواق والقصور والحمامات والمتنزهات))[١]، والحال ذاته ينطبق على ما قام به ابنه الخليفة الحكم المستنصر عندما أنشأ قصر أبي دانس على ساحل المحيط ليكون حلقة وصل وربط بين اسكندنافيا والأندلس[٢]. وليس أدل على تعظيم الناصر لملكه ودولته من ذلك الشعر الذي ينسب إليه عندما دار كلام بينه وبين قاضي قرطبة **المنذر بن سعيد**[٣] عندما دخل عليه ورآه منهمكاً مع المهندسين في بحث خطط المدينة فوعظه المنذر بأن هذا العمل ليس من صميم الحكم والملك فأجابه الناصر بأبيات شعر قال فيها:

هِمَمُ المُلُوكِ إذا أرادوا ذِكْـــرَها..... مِنْ بَعْدِهِم فبألْسُنِ البُنيَـانِ

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٧؛ السيد عبد العزيز سالم: قرطبة، ١ / ٢٤٥.

(٢) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، ٢ / ١٤٨.

(٣) هو القاضي منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن عبد الله النفزي البلوطي، ولي قضاء الجماعة سنة ٣٣٩ه بعد القاضي محمد بن أبي عيسى، كان صلبا صارما غير هياب ولا جبان، عاصر الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، توفى سنة ٣٥٥ه/ ٩٦٥م عن عمر ناهز الرابعة والثمانين وللمزيد من التفصيل انظر: الخشنى، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني: قضاة قرطبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٢٩ه/ ٢٠٠٨م، ص ١٢٠؛ ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ٢ / ١٤٢ – ١٤٣؛ النباهي، ابن الحسن الأندلسي: تاريخ قضاة الأندلس أو المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ضبطته: مريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ه/ ١٩٩٥م، ص٨٩ – ١٠١؛ ابن خاقان، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد عبد الله: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكه، دار عمار – مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣ه / ١٩٨٣م، ص ٢٣٧ – ٢٥٩.

obeikandi.com

أو ما تَرى الهَرَمينِ قد بَقيا وكَمْ..... مُلْك مَحَتْهُ حَوادِثُ الأَزْمَانِ

إنَّ البِنَاءَ إذا تَعــاظَمَ شَأنُهُ..... أَضْحَى يَدُلُّ على عَظِيمِ الشَّانِ[١]

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر قد أنفق على مدينة الزهراء، الأموال الكثيرة حتى قيل إنها أخذت ثلث بيت المال[٢]، وقد أجمع كل من شاهد مدينة الزهراء ذات الجلالة والفخامة على انه لم يبن مثلها في الإسلام قط[٣]، بل ((هي أغرب وأبدع ما بني في الإسلام...))[٤]، كما أن حجم العمران قد بلغ في هذه المدينة درجة كبيرة حتى كاد يتصل عمران الزهراء بمدينة قرطبة[٥]. ولم تقتصر إنجازات الناصر العمرانية على ذلك، بل قام بإعادة بناء مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م[٦]، فضلاً عن مدينة المرية التي أنشأها سنة ٣٤٤هـ/

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٧٥؛ السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٥٢؛ نجلة إسماعيل العزي: قصر الزهراء في الأندلس، وزارة الإعلام – مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٢؛ عبد الحليم عويس: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص ١٠ .

(٢) مؤلِّف مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٢٠٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ٢ / ٢٣١؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص٣٢؛ ستانلي لين بول: قصة العرب، ص ٩٧.

(٣) المقري: نفح الطيب، ١ / ٥٦٥؛ عصام محمد شبارو: الأندلس، ص ١٧٥.

(٤) الزهري: كتاب الجعرافية، ص ٨٧.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٠٧.

(٦) ابن عذارى: المصدر السابق، ٢ / ٢١٣؛ ابن الكردبوس: الاكتفاء، ١ / ٣٨٣. عرفت هذه المدينة قديماً باسم أوسيليس Ocilis، وأعاد إعمار هذه المدينة في بداية فتح الأندلس زعيم

٩٥٥م[١]، والتي امتازت بغنى أهلها وكثرة الحمامات والفنادق فيها حتى وصلت ما يقارب الألف[٢]، إذ أصبحت واحدة من المدن التجارية والصناعية المهمة وقاعدة من قواعد الأسطول الأندلسي[٣].

ومن الإنصاف أن نذكر أن إنشاء مثل هذه المدن لهو دليل على غلبة الطابع الحضري وازدهاره في الأندلس. كما ظهر اهتمام الخلفاء الأمويين بالمستشفيات إذ بلغ عددها خمسين مستشفى[٤]. وكذلك اهتم الخليفة الحكم المستنصر بالشوارع، وذلك عندما أمر بتوسعة طريق المحجة العظمى وهو الشارع الرئيس لسوق قرطبة، إذ كان ضيقا يعيق حركة الناس نتيجة لازدحامهم، لهذا أمر المستنصر صاحب شرطة قرطبة أحمد بن نصر بتوسعة الشارع وهدم الحوانيت المعيقة وتم له ذلك[٥].

مغربي اسمه سالم بن ورعال المصمودي الذي سميت المدينة باسمه. انظر: أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت، ص ٤١٨.

(١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص ١٨٣.

(٢) المقري: المصدر السابق، ١ / ١٦٣.

(٣) عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٠٤.

(٤) عبد الله بن العباس الجزري: تقدم العرب في العلوم والصناعات، واستاذيتهم لأوربا، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٠ه/ ١٩٦١م، ص ٥٦.

(٥) ابن حيان، المقتبس، تحقيق: الحجي، ص ٧٠ – ٧١.

د – ثقافياً

- التسامح الديني

كان لسياسة العرب الفاتحين للأندلس التي اتسمت بالمبادئ السمحاء والقيم النبيلة كبير الأثر على الإسبان، الأمر الذي دفع قسماً منهم إلى اعتناق الدين الإسلامي طواعية، وظل قسم منهم في الوقت نفسه على ديانتهم على الرغم من اختلاطهم بالمسلمين وتعلمهم اللغة العربية وسُمُّوا بالمستعربين، إلا أن أعدادهم راحت تتناقص بسبب دخول أعداد كبيرة منهم في الدين الإسلامي، وفي هذا إشارة واضحة لتمتعهم بالحرية الدينية الكافية لممارسة معتقداتهم في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر، وما قبلها، بل راح عدد منهم يتبوأ مناصب عليا في الجيش والبلاط(١). وقد شغف عدد من المستعربين الإسبان باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية وكان لهم دور مهم في الأندلس مثل: الأسقف ربيع بن زيد ويسمى ريسموند(٢)، الذي عينه الناصر أسقفاً لمدينة البيرة، وكان يجيد العربية واللاتينية، وعمل سفيراً للخليفة الناصر إلى إمبراطور ألمانيا(٣)، ومطران طليطلة عبيد الله بن القاسم، وأسقف قرطبة

(١) رينهرت دوزي: المسلمون في الأندلس، ١ / ٣٥ – ٣٨. أقبل المسلمون على مصاهرة أهل البلاد فتزوجوا زوجات إسبانيات أنجبن أبناء عرفوا بالمولَّدين. انظر: حسين يوسف دويدار: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي ١٣٨ – ٤٢٢ه / ٧٥٥ – ١٠٣٠م، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة،١٤١٥ه/ ١٩٩٤م، ص٤١.

(٢) حسين يوسف دويدار: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٣) ابن خلدون: تاريخ، ٤ / ١٨٣؛ عبد الرحمن علي الحجي: أندلسيات، ١/ ٥١؛
Laurens Henry et les autres: Europe et l lslam Quinze siecles D histoire , odile dacob , Paris , ٢٠٠٩ , P. ٥٨.

أصبغ بن عبد الله بن نبيل، وعمل قسم منهم بالترجمة مثل: القاضي جيزون قاضي النصارى بقرطبة في عهد الخليفة الحكم المستنصر(١). ولم يقتصر الأمر على التشجيع على خدمة الدولة وتولي مناصب فيها وحسب، وإنما أصبحت الكنيسة إلى جوار المسجد الجامع(٢).

إن التسامح الديني والحرية لم يقتصرا على فئة واحدة من أهل الذمة وإنما تمتع بهما النصارى واليهود على حد سواء، وخير مثال على هذا ما ذكر عن الطبيب حسداي بن شبرط الذي عمل في بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر وشغل مناصب دبلوماسية ومالية، وهذا ما تذكره المصادر اليهودية قبل الإسلامية، وأن حسداي هذا كان مستفيداً من التسامح الديني والحرية التي تمتع بهما أهل الذمة بصورة عامة عند المسلمين إلى الحد الذي جعله يجهر بيهوديته بحرية، بل كان شخصية مهمة ومركزية أيضاً في المجتمع اليهودي أثبتتها الوقائع من خلال حرصه على رعاية المصالح اليهودية ليس في الأندلس حسب وإنما خارجها، وخير دليل على ذلك الرسالة التي كتبها بالعبرية وبعث بها إلى هيلينا زوجة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع يطلب منها حماية اليهود في بيزنطة مما يتعرضون له من اضطهاد، وكان حسداي هذا راعياً للمؤسسات الثقافية اليهودية، ويمثل حاخامات البلاط من اليهود الأندلسيين(٣).

---

(١) حسن يوسف دويدار: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) محمد ابراهيم الصيحي: أثر العرب في الحضارة الأوربية، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م، ص ٨١.

(٣) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية، ١ / ٣٠٤. يعد بيت حسداي ومن جاء من

وبذلك فإن الأندلس تعد البلد الأوربي الوحيد الذي تمتع به اليهود بالحماية والرعاية من لدن الدولة، وهذا ما يفسر الزيادة الكبيرة في عددهم[١]، وكان اليهود يتمتعون بحرية ممارسة معتقداتهم الدينية والحج إلى بيت المقدس، وتأليف الكتب الدينية[٢]، وإذا كان هناك من يرى أن هذه الحرية التي هيَّأت لأهل الذمة ولاسيما اليهود منهم أن يتبوأوا مراكز ريادية في الأندلس في الإدارة العامة أو الشؤون الدبلوماسية أو المالية من قبل حكام الأندلس، كان بدافع الحرص على السلطة السياسية العليا والحفاظ عليها من المسلمين الذين قد يطمحون إليها، لكون اليهود ليس بمقدورهم أن يطمحوا إلى السلطة السياسية مثل المسلمين الذين يكون خطرهم أكبر على النظام القائم إذا ما تبوأوا تلك المراكز التي شغلها اليهود[٣].

لكن التسامح الديني والحرية اللتان منحتا لأهل الذمة، والمناصب التي شغلوها، لاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر لم

نسله من بيوت أشراف اليهود في الأندلس، وكان لهم مناصب مرموقة في الدولة، ومنهم الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداي الذي كانت له صحبة بالخليفة المستعين بالله انظر: ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: حسين يوسف خريوش، علم الكتب الحديث، اربد، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م، ص ٥٤٥، ٥٥٠ .

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، مطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه، القاهرة، د. ت، ص ٢٧٧.

(٢) علي عطية الكعبي: التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف ٩٢ – ٤٨٤ه/ ٧١١- ١٠٩١م، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية التربية – ابن رشد/ جامعة بغداد، ١٤٣١ه/ ٢٠١٠م، ص ١٧٢.

(٣) سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية، ١ / ٣٠٥.

تكونا بدافع الحرص على السلطة السياسية العليا كما يزعم البعض، وإنما كانت نابعة من عدالة اجتماعية يحققها الراعي للرعية متمثلة في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وإعطاء كل ذي حق حقه. فهؤلاء النصارى أو اليهود كان البعض منهم يتمتع بمميزات جعلته أهلاً للمراكز التي شغلوها بالدولة، إذ كانوا يجيدون الترجمة وينطقون باللاتينية والعربية وهذا ما جعلهم حلقة وصل لتبادل الثقافات بين العرب وأوربا، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الحرية الممنوحة لهؤلاء نابعة من تعاليم الدين الإسلامي السمحاء التي دعت إلى حرية المعتقدات الدينية مقابل إعطاء الجزية لمن لم يسلم. وبذلك فإن تسامح المسلمين هذا وتوفيرهم الحرية لمن يخالفهم في المعتقد الديني لهو دلالة واضحة على القوة التي كانت تتمتع بها الدولة في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، ذلك كله في الوقت الذي كانت أوربا كلها تعيش تحت وطأة التعصب الديني والجنسي في السياسة الحاكمة والحياة العامة[١].

- ازدهار العلوم والآداب والفنون

لم يقتصر الازدهار الذي حَلَّ في قرطبة على الجوانب العمرانية، بل ازدهرت إلى جانب ذلك حركة علمية رائدة بمكتباتها التي زخرت بآلاف المخطوطات القيمة والنفيسة العربية والمترجمة أيضاً، وكانت مساجدها وقصورها مراكز جذب للعلماء والأدباء والمثقفين نتيجة للمناخ الفكري الراقي في المدينة، حتى ذكرها المقري بأنها:((... مجتمع أعلام الأنام... ومعدن

(١) محمد ابراهيم الصيحى: أثر العرب، ص ٨١ .

العلماء...))[١]، كما أن ازدهار الحياة العلمية والأدبية والفنون كانت بدايته في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط، إلا أن قمة النضج والإبداع لهذا الازدهار كان في عهد الخليفة الناصر وابنه المستنصر عندما أضحى اسم قرطبة مقترنا بالعلم والعلماء والأدباء[٢]. حتى عبر أحد الشعراء عن ذلك حين قال:

بأربعٍ فاقَتْ الأمصارَ قرطُبةٌ..... منهنَّ قَنْطرةُ الوادي وجامِعُها

هاتانِ ثِنْتانِ والزَّهْراءُ ثالثةٌ..... والعِلْمُ أعْظَمُ شيءٍ وَهْوَ رابعُها[٣]

فعلى سبيل المثال يظهر حجم الاهتمام بالعلوم عندما أنشأ الناصر ديواناً خاصاً بالأطباء، وكان منهم **محمد بن تمليخ**[٤]، و **أبو عبد الملك الثقفي**[٥] الذي

(١) نفح الطيب، ١ / ١٥٣ .

(٢) عبد المحسن طه رمضان: موضوعات من تاريخ وحضارة الأندلس، جامعة عين شمس – كلية الآداب – قسم التاريخ، القاهرة، ١٤١٣ه/ ٢٠١٠م، ص ١٤٧.

(٣) المقري: نفح الطيب، ١ / ١٥٣.

(٤) يكنى أبو عبد الله، خدم الناصر في صناعة الطب وكان عالما بالطب، ولى خطة الرد والشرطة، كانت له منزلة عند المستنصر بالله، توفى في رمضان ٣٦١ه. وللمزيد من التفصيل انظر: ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي: طبقات الأطباء والحكام، تحقيق: فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م، ص ١٠٨؛ ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ٢ / ٧٤ .

(٥) خدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب، ولى خزانة السلاح في عهدي الناصر والمستنصر، وكان أعرج وعمي في آخر عمره. وللمزيد من التفصيل انظر: ابن جلجل: المصدر السابق، ص ١١١.

برع بالطب والهندسة أيضاً في عهدي الناصر والمستنصر[١]، وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر قد حث على التدريس في جامعة قرطبة، وعَيَّن المدرسين وبذلك يكون قد أسس جامعة قصدها طلاب العلم من كل حدب وصوب، إذ لم تقتصر على طلاب الأندلس بل صار طلاب العلم يفدون إليها من غرب أوربا ومن إفريقية ومن الشرق أيضاً، ثم توسع الخليفة الحكم المستنصر في ذلك[٢]، وتعد جامعة قرطبة أعظم جامعة عربية في أوربا في العصور الوسطى وقد درس فيها البابا سلفستر الثاني عندما كان راهباً، وكانت المواد التي تدرس في الجامعة هي علوم الشريعة واللغة فضلاً عن العلوم الأخرى[٣]، وأوكل الحكم المستنصر مهمة الإشراف على الجامعة وأساتذتها إلى أخيه عبد العزيز[٤]. ويرى الجزري أن الخليفة الناصر أول من أنشأ مدرسة طبية في أوربا في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي[٥].

---

(١) صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد: طبقات الأمم، نشره وذيله الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيون، بيروت، ١٣٣١ه/ ١٩١٢م، ص ٨٠.

(٢) شاكر مصطفى: الأندلس في التاريخ، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٤١١ه/ ١٩٩٠م، ص ٧٤. كانت تلك الجامعة ترحب باليهود والنصارى والمسلمين على حد سواء.انظر: جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين في إسبانيا، مكتبة دار المعارف، ط٢، الرباط، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م، ص ٨٥.

(٣) كريم عجيل: الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية (٩٢ – ٤٩٥ هـ/ ٧١١ – ١١٠٢م)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦ م، ص ٢٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٠٦.

(٥) تقدم العرب، ص ٦٤.

على الرغم من أن الصبغة الطاغية على الخليفة الناصر أنه رجل سياسة وحرب، لكنه شَجَّع العلم والعلماء أيضاً، والحال ذاته ينطبق على الخليفة الحكم المستنصر، إذ اهتم كلاهما بالناحية العلمية من خلال تشجيعهما للعلم والعلماء الذين وفدوا على الأندلس أو من أهل البلد للعمل في التدريس بتلك الجامعة، مثل العالم اللغوي أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي الذي وفد على بلاط قرطبة سنة ٣٣٠ه/ ٩٤١م وحظي بمكانة عالية، وعبد الله بن محمد الزجالي، والحافظ أبي بكر بن معاوية القرشي، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجاري، وكذلك المؤرخ القرطبي أبو بكر بن محمد المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس، كان العالم المغربي محمد بن حارث الخشني صاحب كتاب قضاة قرطبة قد انتقل من **القيروان**[١] إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الحكم المستنصر[٢]، ونتيجة لجو التسامح الذي أحاط به الخليفة الحكم المستنصر الحياة الفكرية الأندلسية، استفادت مدرسة ابن مسرة من هذا التسامح مما أدى إلى دوامها أطول مدة، وكان أغلب طلاب هذه المدرسة من المؤرخين والأدباء والمختصين بالجدل والتفكير الفلسفي الذين لم يكونوا منصرفين إلى دراسة الحديث[٣].

(١) مدينة عظيمة من مدن المغرب وتعد من قواعد الإسلام الأربعة (بغداد، القاهرة، القيروان، قرطبة)، وكان قد اختطها القائد العربي عقبة بن نافع الفهري. وللمزيد من التفصيل انظر: الزهري: كتاب الجعرافية، ص ١٠٩.

(٢) أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي، ص٤٢١؛ محمد عبد الله عنان: المرجع السابق، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٧٠١.

(٣) آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٣٧٥ه / ١٩٥٥م، ص ٣٣٠.

ومما هو معروف أن الخليفة الحكم المستنصر كان شديد الولع بالقراءة ومحبا للعلم والمعرفة وقد تجلى ذلك في جمعه للكتب إذ وصف بأنه كان ((عالماً فقيهاً بالمذاهب اماماً في معرفة الأنساب حافظاً للتاريخ جماعاً للكتب...))[١]، وأنشأ مكتبة ضخمة بالقرب من قصره بعدما ضاق قصر الخلافة بتلك الكتب وعهد بإدارتها إلى أخيه عبد العزيز، إذ تعد أكبر مكتبة لدولة في العصور الوسطى، وقد خصص لها الموظفين المختصين وتقدر عدد مصنفاتها بأربعين ألفا في العلوم والأدب والفقه، فضلاً عن المراجع المترجمة عن اليونانية في فروع عديدة[٢].ونتيجة حتمية لكل هذا الاهتمام بالنواحي العلمية والأدبية والفنية من لدن الخليفة الناصر وابنه المستنصر، راح الأندلسيون يؤلفون في شتى العلوم كالطب والحساب والهندسة، وفي الفلسفة والموسيقى، والتاريخ والسيرة والجغرافية حتى لم يبق حقل من حقول العلم والمعرفة إلا وطرقوا بابه[٣].

ومما يروى عن الخليفة الحكم المستنصر أنه عمل على ((اتخاذ المؤدبين

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ٤١.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، العصر الأول / القسم الرابع / ص ٥٠٦؛ ليفي بروفنسال: حضارة العرب، ص ٦٩؛ ايلي لومبير: تطور العمارة الإسلامية في اسبانيا والبرتغال وشمال أفريقيا، ترجمة: جليان عطا الله، دار آسيا، بيروت، ١٤٠٦ه / ١٩٨٥م، ص١٢٢. يشير البعض إلى أن عدد المصنفات في هذه المكتبة بلغ أربعمائة ألف. انظر: توفيق سلطان اليوزبكي: الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها في أوربا، مجلة آداب الرافدين، العدد الثالث عشر، الموصل، ١٤٠١ه/ ١٩٨١م، ص ١٧ .

(٣) كريم عجيل: الحياة العلمية، ص ٢٦٣.

يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم))[١]، وبذلك فإن القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وبعد هذه الإنجازات الجليلة من لدن الخليفة الناصر وابنه الخليفة الحكم المستنصر في مجال العلم والتعلم، لم يبق فيه فرد في الأندلس إلا وكان يحسن القراءة والكتابة[٢]. وبذلك فقد اتضحت حقيقة مفادها أن الخليفة الناصر وابنه المستنصر كانا قد وضعا اللبنة الأولى للتعليم المجاني ومحو الأمية في العصور الوسطى.

أما فن الخط الكوفي فكان له نصيب من الاهتمام إذ كان في الربض شرقي قرطبة مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، وهذا الأمر ساعد على ازدهار الحركة العلمية في أرباض ودور قرطبة[٣]، وأكد دور المرأة الإيجابي في المجتمع الأندلسي من خلال مساهمتها في الحركة العلمية.

لعل من الإنصاف ذكر عهد الحكم المستنصر ذلك العهد الذي شهد أكبر نهضة علمية شهدتها الأندلس، إذ لا تخلو ترجمة للحكم المستنصر في أي كتاب

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٠.

(٢) شاكر مصطفى: الأندلس في التاريخ، ص ٧٣؛ جوزيف ماك كيب: مدنية المسلمين، ص ٨٥.

(٣) ليفي بروفنسال: حضارة العرب، ص ٧٠؛ إيمان سليم الجبوري: تطور الحركة العمرانية لمدينة قرطبة ٩٢-٤٢٢/ ٧١١-١٠٣٠، رسالة جامعية غير منشورة، كلية التربية للبنات – جامعة بغداد، بغداد، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٤م، ص١٣٢.

عن الإشادة بدوره والاعتراف بفضله الكبير على النهضة العلمية التي عمت البلاد، وفي الوقت نفسه فإنه من الإنصاف أيضاً أن ننسب شطراً كبيراً من ذلك الفضل إلى أبيه الناصر الذي أرسى قواعد الحضارة، وَمهَّد للنبوغ الفكري، وأسّسَ اللبنة الأولى للتقدم العلمي في الأندلس، وقديماً قيل إن البناء من غير أُسٍّ لا يبنى والزرع من غير غَرْسٍ لايجنى، فلم يولى الحكم المستنصر إلا بعد أن بذر أبوه بذور العلم والمعرفة، وغرس شجرة الفكر التي آتت أكلها في عهد ابنه الحكم المستنصر.

ومن كل ما تقدم ظهر حجم التقدم والتطور والازدهار الذي عم كل مرافق الحياة، وكذلك حجم الانجازات المتحققة في ظل حكم الخليفتين عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، و تعد نهاية حكمهما مرحلة هدم وتدمير لكل ماتم انجازه والذي سيتم ابرازه في الفصول اللاحقة من الدراسة.

obeikandl.com